

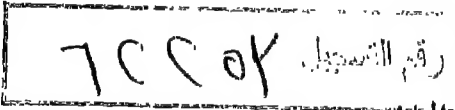
ثروت باظ

الاضباب



ثروت أباظة

الضباب



الناشر

مكتبة مصر

٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

ت : ٥٩٠٨٩٢٠



(١)

بكرت الحاجة بمبة زوجة الحاج والى عبد الهادى فلبست معطفها ووضعت على رأسها خمارا مما تضعه زوجات الأعيان فى الريف ، وأسقطته على وجهها وخرجت إلى الطريق العام تسير فى تودة وفى صحة مكتملة ، فما كانت الست بمبة قد تعدت الأربعين من عمرها ، وما كان بطء المشية إلا التزاماً بما تمليه عليها مكانتها فى القرية .

ولم يطل المسير بالست بمبة فقد توقفت عند باب أحال وجهه لقاء الزمن ، فهو كالح باهت لا استواء فى ألواحه ولا نعومة ، فكأنما ألقت عليه الأيام غصوناً كهذه التى تلقىها على وجوه البشر ، وطرقت بمبة الباب فانشق عن امرأة فى خريف العمر ، فى وجهها قناعة وطيبة وفيه أيضاً بعض غصون من العمر تركبها خصللات من الشعر الأبيض جمحت فأبقت أن تبقى حبسة المنديل القديم الذى تعصب به رأسها ، وقد دهشت سيدة أم غسل أن تقصد إليها الست بمبة فى زيارة صباحية بغير داع إليها .. ولكن دهشتها لم تمنعها أن ترحب بالزائرة أعمق ترحيب وأصدق .

لم تكن الحاجة بمبة لتزور بيت سيدة أم غسل فى الصباح ولا حتى فى المساء ، إذ لم يكن هناك سبب ملح للزيارة كأداء واجب فى عزاء أو تهنئة لزواج ، أما أن تسقط عليها عما يفعل الأصدقاء رفعوا بينهم الكلفة والمواعيد ، فهذا ما لا يتفق ومكانة الست بمبة أو الحاجة بمبة كما يدعوها الجميع ، فهى زوجة الحاج والى عبد الهادى من أعيان قرية الحمدية يملك فى زمام القرية ثلاثين فدانا . وهو إلى هذا رجل ذو رأى صائب يلجأ إليه القوم فى الملمات ، وهو كذلك على صلوات وطيدة بدوى الشأن فى المديرية — مديرية الشرقية — وليس أدل على وجاهته ومكانته المرموقة من أن زين العابدين بك الدرملى وجيه القرية بل المنطقة ، لا يزور فى القرية إلا قلة

قليلة من بينها إن لم يكن فى مقدمتها الحاج والى عبد الهادى . فزيارة الحاجة بمبة إذن لسيدة أم عسل زوج محمدىن أبو على زيارة من شأنها أن تشير الدهشة والعجب والحيرة .

والزيارة فى الصباح تزيد من هذه الدهشة والعجب والحيرة . فما تعودت النساء فى القرية أن يتزاورن فى الصباح فكيف بهذه الزيارة التى تقوم بها الحاجة بمبة إلى هذا البيت المتواضع ، فما يزيد محمدىن أبو على على رجل طيب يملك فدانىن اثنين وخمسة أولاد بين بنات ونساء وبنىن ، وهو بعد يزرع الفدانىن بيديه . فالصلة إذن بين الحاجة بمبة وسيدة ، صلة تقوم على العطف أكثر مما تقوم على الصداقة ، وزيارة الحاجة بمبة لبيت محمدىن فى أى وقت إنما تعتبر تنازلاً يتلقاه أهل هذا البيت الطيب بكل امتنان وزهو ، وزيارة سيدة أم عسل لبيت الحاجة أمر تستعد له سيدة استعداداً كبيراً ، ثم هى لا تقوم بهذه الزيارة وحدها إنما تحرص فى غالب الأمر على أن تصحب معها ثلثة من لساء القرية . وهذه الزيارات تتكرر مرات كثيرة فى الأسبوع ، فى حين لا تتم زيارة الحاجة بمبة لسيدة إلا مرة فى العام على الأكثر ولا بد أن يكون هناك داع لتمام الزيارة . إذن فقدوم الست بمبة لابد أن يكون مصحوباً بالخطير الجليل من الأمر .

قالت سيدة :

— أهلا ستى الحاجة .. نورت ، أهلاً وسهلاً .. تفضلى .

ودلفت بمبة إلى البيت ودخلت إلى القاعة التى تعرفها وقالت :

— كيف أنت يا سيدة ؟

وأجابت سيدة :

— الله يقيقك ويطيل عمرك .. دقيقة واحدة أحضر الحصى .

— لا . سأجلس على المصطبة .

— ٥ —

— أهذا يصح يا ستى الحاجة ؟ .. والله أبدا .. حالا ..
وراحت ترفع صوتها وهى تحضر الحصر من خارج الغرفة لتشعر الست
بمبة أنها معها لم تتركها ، وما لبثت أن عادت سيدة وفرشت الحصر على
المصطبة المبنية من اللبن وقالت :

— قهوة ؟ . عندنا بن يبنى يستاهل حنكك .
— اقعدى يا سيدة .
— القهوة قبل أن أقعد .
— اقعدى يا سيدة ، أنا أريدك فى شىء مهم .
— يا ستى الحاجة من حلقك علينا أن تأمرى .. لا ينسى المعروف إلا ابن
الحرام .. لماذا لم ترسلنى إلى وأنا أجيء على عيى ؟
— لا .. أردت أن أجيء أنا إليك .
— أهلا وسهلاً .. شرفت بيتنا .. والنبي التركينى دقيقة واحدة أحضر
القهوة .

— اسمعى يا سيدة .. أنت تعرفين منذ متى وأنا متزوجة من الحاج .
— نعم منذ أكثر من عشرين سنة .
— أظن يا سيدة أن ليس فى العالم واحدة فعلت ما أفعله أنا الآن .
— خيرا يا ستى الحاجة .
وجدبت الحاجة بمبة نفسا عنيقا من أعماق أحزانها ثم أطرقت لحظات
وصمت ، واحترمت سيدة حزن الحاجة وصمتها فصمتت هى حتى عادت
بمبة إلى الحديث :

— أنت تعرفين كم يشنق الحاج إلى أولاد !
وأطرقت سيدة وتنهدت ومصت شفيتها وقالت :
— نعم يا ستى الحاجة ، ربنا يكون فى عونك .

— ٦ —

- الحاج الآن فى الأربعين من عمره وهو ..
وقاطعتها سيدة قاتلة :
- هل جربت التفاحة ؟ .. سهلة .. أقول لك ..
وقاطعتها الحاجة بمبة :
- أكثر من عشرين سنة أجرب يا سيدة .. اسمعى الكلام لآخره ولا
تقاطعينى .
- أمرك يا ستى الحاجة .
- الحاج لم يعد يستطيع صبراً وهو محق ، فإن سنه لا تسمح له بأن ينتظر ..
بلغ من شغفه بالنجاب الأطفال أنه كان يريدنى أن أذهب إلى مصر اليوم
وأعرض نفسى على طبيب .
- ودقت سيدة صدرها وكأنها طعن شرف الحاجة بمبة ، وقالت سيدة :
- ماذا يا ستى الحاجة .. طبيب رجل .. يكشف عليك أنت ؟ أنت يا
طاهرة يا نظيفة .. قطع الخلف وأيامه .. أمن أجل العيال يكشف، عليك
رجل ؟ رجل يا ستى الحاجة .. رجل !
- فقلت بمبة فى أسى :
- لم أقبل يا سيدة .. لم أقبل . ولكنى أعرف زوجى فهو رجل غيور .
- عارفة يا ستى الحاجة .
- فقبوله أن يكشف على رجل دليل على مقدار لهفته على الخلف .
- لك حق يا ستى الحاجة .
- رفضت .. وقلت فى نفسى
- وصمتت الحاجة وأطلقت تنهيدة أخرى من صدرها فما خففت التنهيدة
شيئاً ، وكانت سيدة تتحرق شوقاً لتعرف ما بنفس الحاجة .. ولم تكمل

— ٧ —

الحاجة حديثها بل إنها لوت طريقه فى عنف يدعو إلى الدهشة فهى تسأل سيدة :

— قولى يا سيدة .. أيجرى أحد على ابنتك صالحة ؟

— نعم يا ستى الحاجة . ولكن ما المناسبة ؟

— هل أعطى محمد بن كلمة لأحد ؟

— لا .

— أنا أخطبها للحاج والى .

— ماذا يا ستى الحاجة .. ماذا قلت ؟

— ما سمعت .. أنا أخطب ابنتك للحاج والى زوجى .

كان الموقف أكبر من الدهشة من سيدة وأكبر من الألم من بمبة ، فلف المرأتين صمت امتزج فيه العجب الآخذ بالألم المريع والتقت فيه دموع بدموع ، دموع من أعماق الإنسانية الخالصة ، وفهمت كل من المرأتين سر دموع الأخرى .. وتماثلت الحاجة بمبة أمر نفسها سريعاً وقالت :

— قلت له لن أذهب ، ثم أدركت أنه سيتزوج ، فقلت أزوجه أنا من امرأة أعرفها خيراً من أن يحضر لى ضرة لا أعرفها وتحاول أن تجعل من نفسها سيدة على ، فهى — فى الغالب — ستكون أم العيال . أنا أعرف صالحة .. إنها بنت حلال .

وقاطعتها سيدة :

— خدامتك يا ستى الحاجة .

— وهى أيضاً قد تزوجت من قبل وخلفت وسنها معقولة .. هيه .. ماذا

قلت ؟

— أمرك يا ستى الحاجة .

— ستكون كابنتى تماماً يا سيدة .

- عارفة يا ستي الحاجة .. عارفة .. لا حول ولا قوة إلا بالله .. لا حول ولا قوة إلا بالله .

(٢)

كان الحاج والى جالسا فى دوار زين العابدين بك ينتظر نزوله من الطابق الأعلى . ولم يكن أحد يشارك الحاج والى فى جلسته فى الدوار فهو وحيد . ولم تكن السعادة بادية على محياه ، فهم متجههم شارد الدهن مفكر تفكيراً لا تلوح عليه بوادر هناءة أو رضا . فوجهه الأسمر مقطب ، وشاربه الذى تعود أن يعتنى به كل يوم عند الحلاق مهممل أشعث غاضب كصاحبه ، حتى العمامة التى لا يلبسها الحاج والى إلا وهى ملفوفة مسبوكة مهندمة ألقى عليها الحاج والى ظلاً من تجهمه ، فهى منداحة على رأسه تكاد تتهدل أطرافها على وجهه . وفى عينيه السوداوين ظل من أسف وأسى ، وفى جبهته العريضة غصون من الألم لا من الزمن ، وفى فمه كلمة حبيسة لا يدريها ولا يعرف ما هى ولكنه يعرف أسبابها ودوافعها .. كيف يقول ما بنفسه ، كيف يعبر عنه ؟ لم يكن يدري .. وأنفه الكبير بعض الشئ يجتذب أنفاساً عميقة ولكنها لا تريحه ، فما يلبث من حين لآخر أن يفتح فمه الصغير فيلقط من الهواء شهيقاً عميقاً يزفره فى لفحة حانقة ضيقة ملول ، فما يجدى الشهيق ولا الزفير ولا الأنفاس اللاهثة التى يجتذبها له أنفه .

ويأتى متولى الخادم إلى الحاج والى فما يرفع عينيه إلى متولى . ولم يكن متولى ليرضى هذا منه فقد تعود من الحاج والى مداعبة أو كلمة تحية إن كان جالسا إلى البك ، أما أن يلاقيه بهذا الصمت بل بهذا الإهمال فأمر لا يمكنه السكوت عليه ، فإن الحاج والى لا يفعل هذا إلا إن كان فى حال من الضيق شديدة . وقبل أن ينطق متولى يكون الحاج والى قد شهق من الهواء شهقة

طويلة زفرها وقد ضم شفتيه بعض الشيء فخرج الهواء كصغير فاشل حائق ، وقال متولى :

— أعوذ بالله ! لماذا هذا يا حاج والى ؟ .. هون عليك يا شيخ . تببت ناراً تصبح رماداً .. ما الذى يضايقك ؟

وكأنما لم يكن الحاج والى يتوقع أن يتبين متولى حقيقة مشاعره ، فهو يقول فى أسى :

— اهم كثير والله يا متولى .. النهاية . الحمد لله على كل شيء .
— ماذا ، ماذا بك ؟ عريس جديد ، والمال — والحمد لله ، موفور وشباب وصحة ، وكل ما تشتهيجه تجده .

— اسكت يا متولى .. اسكت لا يعرف النفوس إلا خالقها .. اسكت لا أراك الله ما أنا فيه .

— يا رجل توكل على الله .. هل أحضر الشربات ؟
— بل القهوة يا متولى . ولتكن بغير سكر .

يا رجل أعوذ بالله ، أهو حسد ما أصابك ؟ .. ماذا بك قل لى إنك منذ فترة طويلة مهموم ، وقد حسيت أنك حين تتزوج سيزول عنك الهم ، فإذا أنت تصبح تعسا ، أين الضحكة الحالية من التفكير ؟ أين النكتة الرائعة من كل كدر ؟ أين أنت يا حاج والى ؟

— لا عليك يا متولى .. لا عليك ، هكذا أمر الله .
— يا رجل أنت متزوج من قريب ، أهذه حال رجل تزوج من قريب ؟
— أمر الله يا متولى .

— لا حول ولا قوة إلا بالله ، ولكنى رغم هذا سأحضر لك الشربات لنأخر ، شربات ، شربات مهما تكن مهموماً ، شربات .

وخرج متولى وخلت الغرفة بالحاج والى ، وثقل عليه الصمت وثقل عليه التفكير الصاحب . وود لو عاد متولى ولو ليشقشق بهذا الحديث الذى تعود أن يشقشق به . ولكن متولى آثر أن يتركه ، ولو كان يعلم أن حديثه الفارغ أهم عنده من الشرابات الذى يصر على إحضاره ما تركه ، وتأخر متولى ، وسمع الحاج والى صوتا واهنا ينبعث غير بعيد من مجلسه ، ونظر فرأى مصيدة فيران فاعرة فاها فى شراهة يقف حياها فأر يلوب حوالها مصطعنا الذكاء والحذر ، مقدماً حيناً على اللقمة التى تبدو للنظرة المجردة سائغة سهلة المنال ، محجماً حيناً آخر وكأنما يريد أن يعرف ماذا ستفعل اللقمة أو المصيدة إن هو أعرض عنها ولم يقدم . وانشغل الحاج والى بالفأر واللقمة والمصيدة ، وأمعن الفأر فى مداورته ثم هاجم اللقمة فجأة ، وكأنما أراد أن ينتهز من المصيدة غفلة ويختطف اللقمة ولكن المصيدة لم تكن تغفل ، فما هى إلا أن أصبح الفأر جميعه داخلها حتى أطبقت عليه فمها الشره . ونظر الفأر إلى باب المصيدة نظرة حسيرة ، ثم عاد إلى اللقمة فأكل جزءاً منها ، ثم ما لبث أن عافها .. ونادى الحاج والى :

— يا متولى ، يا متولى .

ولم يجب متولى النداء وإنما دخل الغرفة زين العابدين بك ...

رجل فى أواسط العمر أبيض الوجه سمح الملامح ، يبدو عليه حرص على أن يأخذ من الحياة أحلى جوانبها ، فهو متهى دائماً لهذا الجانب الحلو من الحياة يابتسامة مشرقة لا تفارق وجهه ، وجسم ملهى منعماً لا يجب أن يمنع نفسه من لذائد الحياة . وقد كان زين العابدين بك فى سن الحاج والى وإن كان مبسوط الجسم عريضه ، وكان الشيب قد بدأ يرود فوديه فى تودة وهدهوء . وقد كان شأنه فى إنجاب الدرية شأن الحاج والى فهو أيضاً لم ينجب أطفالاً ، وقد حاولت زوجته قدر طاقتها أن تنجب له بنين أو بنات ولكنها لم

تفلق . ويتس زين العابدين ولم تياس زوجته . وقد رأى زين العابدين ألا يجعل
 يأسه يعوق أملها ، فهو يترك لها مطلق الحرية أن تفعل ما تشاء ، من عرض
 على أطباء إلى استماع إلى وصفات بلدية إلى غير ذلك . لا يقف دون مطلب
 من مطالبها وإن كان هو قد شغل نفسه بغير ذلك ، فهو مسرف غاية السرف
 في إمتاع نفسه لا يعوقه عما يريد شيء ، على استعداد دائماً أن يقترض
 ويبيع ليفعل ما تصبو إليه نفسه ، فهو كثير الولايم ، كثير الذهاب إلى القاهرة
 يجب ليالها جميعاً والحمراء منها خاصة ، ولولا أن الفلاحين قد ثاروا على
 الإنجليز فقطعوا الخطوط الحديدية التي تصل القرية بالقاهرة ، ما استقر زين
 العابدين في القرية . إلا أن الثورة اندلعت لا يقف في سبيلها شيء وانقطعت
 الأسباب بالقاهرة ، وكان زين العابدين بالقرية فأرسل فلاحين يشاركون في
 قطع الخطوط ، وجعل أمره إلى الله وأقام بالبلدة . وحين عسكر الإنجليز على
 مشارف القرية أبى أن يتصل بهم برغم الجهد الجهيد الذي بذله كبيرهم في
 الاتصال به ، ولم يكن ذلك صادراً إلا عن مشاعره الصادقة . وراح الإنجليز
 يحاولون إصلاح الخطوط المقطوعة فلا يجدون من الفلاحين إلا ازدراء ، وقد
 حاولوا أن يغروا زين العابدين بأنهم سيسعون له أن ينال رتبة الباشوية فلم
 يكن هذا الإغراء كافياً ، ورفض أن يعاونهم وإن كان في دخيلة نفسه
 يتحرق شوقاً أن يتم إصلاح الخطوط الحديدية ليجد سبيله إلى القاهرة . لم
 تكن زوجته تعلم عن حياته في القاهرة شيئاً ، بل هي لا تعلم أنه يبيع من
 أرضه شيئاً ، كل ما تعرفه من شأنه أن تطلب منه مالا لتذهب إلى الطبيب أو
 لتشترى ما يلزم لوصفاتها فلا يبخل عليها .

وقف الحاج والى يسلم على زين العابدين ، فعاجله هذا قائلاً :

— مبروك يا رجل .

وقال الحاج والى حسيراً :

— ١٢ —

- لا تهنتنى يا زين العابدين بك .
- لماذا ؟
- لو تعرف ما أنا فيه ما هنتنى .
- خيراً يا رجل . ماذا بك ؟
- لا والله ليس خيراً أبداً .
- قل ماذا حدث ؟
- لا شيء .. تزوجت .
- وهل هذا يحزنك ؟
- ويدخل متولى حاملاً الشرابات ويقول زين العابدين .
- أحسنت صنعاً يا متولى .
- وقال متولى :
- تفضل يا حاج ... مبروك .
- وأخذ الحاج الكوب ووضعته على المنضدة ، وقال زين العابدين :
- ماذا بك ؟
- وقال متولى :
- يا سيدى إنه منذ جاء وهو بهذا النكد .
- وقال زين العابدين :
- عجيبة ؟
- وخرج متولى وهو يقول :
- عجيبة .
- والتفت زين العابدين إلى الحاج والى :
- ماذا يا حاج والى ؟
- ألم تعرف كيف تزوجت يا زين العابدين بك ؟

- ١٣ -

- نعم عرفت .
- عرفت أن زوجتي هي التي خطبت لي ؟
- نعم ... ولا أكتمك . لقد اندهشت لهذا وكنت أريد أن أسألك منذ سمعت ولكنك لم تأت .
- خجلت أن ترى وجهي .
- ولماذا تخجل ؟
- ما الذي يجعل امرأتي تخطب لي ؟ لا بد أنها رأت حرصى الشديد على الإيجاب .
- نعم ... لا شيء فى ذلك .
- أليس هذا مخجلاً ؟
- لماذا ؟
- كيف سولت لى نفسى أن أهين كرامة زوجتى إلى هذا الحد ؟ . يا سعادة البك أنت سيد العارفين .. ألا تتصور مقدار الألم الذى عانته امرأتى وهي تخطب لى امرأة غيرها ، أقسم بالله يا سعادة البك إننى منذ جاءت زوجتى وأنا أستحى أن أكلمها أمام الحاجة .
- وصمت زين العابدين ، وأحس الحاج والى ببعض الراحة وهو يلقى هذا الحديث لأول مرة إلى مسمى إنسان ، واسترسل :
- أكل هذا من أجل الأولاد ؟
- وهل الأولاد شيء بسيط يا حاج والى ؟
- والله يا سعادة البك أصبحت لا أدرى .
- اسمع يا حاج والى ، لقد سمعت عن زوجتك الحاجة أنها عاقلة وكريمة ، ولكنها بما فعلته جعلت نفسها مثلاً أعلى فأكرمها .

— ١٤ —

— أكرمها .. أكرمها يا سعادة البك ، إننى لا أدرى كيف أعاملها ؟ يتهياً
لى أحياناً أنها ليست من البشر .. ولا أدرى كيف أعامل الملائكة ، لقد جعلتنى
لها عبداً .. أنا عارف يا بك .. أنا عارف بشعور المرأة وبغيرتها ... عارف ...
كيف أستطيع أن أوفىها حقها ؟

— أنت محق يا حاج والى .. الحاجة بمبة تستحق ما تقوله عنها .

— ولكن ... ولكن أنا ... أنا خجلان يا سعادة البك .

— أخطبت لك دون أن تخبرك ؟

— أخبرتنى بعد أن خطبت .

— وماذا فعلت ؟

— فعلت ما لا زلت أخجل منه .

— ماذا ؟

— ثرث ولكننى فى دخيلة نفسى كنت مسروراً .

— كيف ؟

— غضبت وقلت لها أتزوج ؟ هذا كلام فارغ و و ولكن لم

أفلح فى إخفاء حقيقة نفسى إنها زوجة عشرين سنة وذكية ، أدركت

أننى مسرور فإذا هى تقول فى كل هدوء : سأشترى لعروسك بعض ملابس

وتتزوجها فى الأسبوع القادم إن شاء الله . وكأنا ألقى على رأسى ماء بارداً

فإذا أنا صامت وكأنى مستسلم ، ثم قمت وخرجت فإذا جميع من فى البلدة

يعرفون أمر الخطبة فهم يهنتوننى ، وأرى فى عيونهم ابتسامة تجمع بين التعجب

والحسد . يخيل لى أنهم كلهم يتمنون أن تكون زوجاتهم مثل زوجتى مع أنهم

جميعاً آباء لهم من البنين ما تضيق به البلدة . لم أجد من أشكو له همى إلا أنت

ولكننى كنت خجلاً منك ، فبيت عنك ثم لم أجد بداً من أن أتغلب على خجلتى

— ١٥ —

وإلا انفجرت بالألم الذى أعانيه فجئت واراحت أن قلت لك ما قلت يا زين العابدين بك . أبقاك الله لنا .

— يا رجل . المسألة لا تستأهل كل هذا .

— بل تستأهل يا سعادة البك ، ولكن ماذا أفعل ؟ .. لم تعد هناك فائدة ..
أيستحق الأطفال كل هذا ؟ ... أيستحق الأطفال أن تطعن امرأة صالحة كزوجتى كرامتها كامرأة ، وتتجاهل أنوثتها إلى درجة أن تخطب لزوجها امرأة لتنجب له أطفالاً ؟ .. ماذا أصنع بهم ؟ لماذا كنت شديد الرغبة فى الإنجاب إلى درجة أن جعلتها تقتل أنوثتها بيديها وكأنها تنتحر ؟ ماذا سأصنع بهم . وماذا سيجرى فى الدنيا إذا لم أنجب أنا أطفالاً ؟ هل تتوقف الدنيا عن الدوران ؟ ماذا أصنع بهم ؟ أرى من عندهم أطفال يضيقون بهم ، وأراهم إذا مرض أحدهم يكاد الأب يموت من قلق وخوف وشفقة ! ثم إذا صح الطفل المريض وجدت الأب ضيقاً غاية الضيق بما يحمل من مسؤولية . لا تؤاخذنى يا سعادة البك فانت لم تنجب ... أى شعور عجيب يشعر به الأب فيجعلنى حريصاً كل الحرص على أن أنجب ؟ ... ألت لا تدرى شعورى هذا ... أم تراك تدرى ؟

— بل لا أدرى ... حقاً أنا لا أدرى ، ولا أكتملك فقد كنت أحب أن أدرى .

— أهو حرصنا على أن يظل اسمنا من بعدنا .

— وماذا يهم من بعدنا أنبقى اسمنا أو لم يبق ؟

— فماذا إذن ؟ .. أى شىء عجيب فى هذه المخلوقات الصغيرة الجبارة

يجعلنا نحبها ونحرص عليها ونتوق إلى أن نصبح آباء لها ؟

— لعلنا نحب فيهم الحياة يا حاج والى فهم حياة جديدة ، وإقبال الأطفال

يشعرنا أو هو يشعر الآباء أن الحياة مازالت تستطيع أن تجدد نفسها .

— ١٦ —

— وماذا نحب فى هذه الحياة ؟ هذه الحياة التى لا نستطيع فيها أن ننال ما نهفو إليه إلا على أشلاء أحبائنا وكرامتهم !!

— ليس هناك كثيرون خطبت لهم زوجاتهم يا حاج والى .

— نعم ولكن هناك كثيرون سعوا إلى الإنجاب بشتى الوسائل وسهروا الليالى الطوال لتحقيق هذه الأمنية . لقد كانت زوجتى شريفة فيما فعلته ، سمعت عن نساء أخريات بذلن أنفسهن لغير أزواجهن ليهبوا لأزواجهن أطفالاً ، أحبوا أزواجهن إلى درجة الخيانة من أجلهم ، هل يستحق الأطفال هذا ؟ هل يستحقون . أم نحن مخدوعون ؟ ... أنا حائر يا سعادة البك .. حائر .. ماذا فى هذه المخلوقات الصغيرة ؟ .. أى سحر فيها ؟ .. إنهم أقوى من الحياة يا زين العابدين بك .. أقوى من الحياة .. يهون على المرأة أن تموت ولا ترى زوجها مع غيرها ، ولكن زوجتى خطبت لى ، خطبت لى لأنها أحست إلى أى مدى أريد أن أرى لنفسى أطفالاً .. هذه المخلوقات اللعينة .. اللعينة .. اللعينة .

— ولكنك مع هذا تريد أطفالاً يا حاج والى .

وأطرق الحاج والى لحظة ، وخيل إليه أن سحبات من ضباب تغشى ناظره ، ثم قال فى أسى :

— نعم يا زين العابدين بك .. نعم .. إنى أريد أطفالاً .

(٣)

تعتبر الحاجة بمبة أمهر سيدة بالقرية فى رؤية المستقبل فى الفنجان ، وطالما قصد إليها نساء القرية لتطلعهن على ما تخفيه لهن الأيام . وبأطالما رأت بقايا القهوة فى فنجانها ، وبأطالما رأت الأطفال قادمين إليها لا تحصيهم عدداً . وها هى ذى اليوم ترى أن تحقيق أميتها قريب فإن الفنجان لم يخبرها إن كانت هى التى ستلد هؤلاء الأطفال أم أن غيرها ستنجبهم لها ، وإنما غاية ما أنبأها أن الأطفال سيفدون إلى البيت ، وهكذا اقتنعت أن فنجانها لم يخطئ . وها هى ذى تنتظر الأطفال من صالحة . ولكنها غير سعيدة يزيد من تعاستها أنها مصممة على أن تبدو سعيدة . وكانت الحاجة بمبة بيضاء فى خدودها حمرة ، وفى وجهها طيبة واستدارة ، ترهل جسمها ولم يفقد انسجامه ، وهى صاحبة حديث شهى سهل المأخذ ، وهى قريبة الغور سمحة ولكنها قادرة على أن تحسم أمورها ، قادرة أيضاً على إنفاذ ما تريد . وقد أعجب بها الحاج والى وهو طالب فى الأزهر الشريف ، وتزوجها يوم أزمع البقاء فى القرية بعد أن ظلت مخطوبة له مدة أربع سنوات كاملة . وقد شهد العام الأول من زواجهما صفاء وحباً . أما العام الثانى فقد كدره هففتها أن تصبح أمّاً ، وزاد هذه اللففة تساؤل قريباتها عما آخرها عن الإنجاب ، ثم صارت السنوات التالية جميعاً كفاحاً من أجل الإنجاب ، وقد كان العلم فى ذلك الحين يضرب فى غياهب من الجهل ، ولم يكن من المعقول فى ذلك الحين أيضاً أن ترى الحاجة بمبة غير النساء ، فزوجها رجل صارم وقد زادت تربيته الدينية صرامة . ولم يكن فى الحجاب الذى يفرضه المجتمع على النساء فى ذلك الحين أى عجب ، بل إن النساء حتى تلك الأيام لم يشعرن بأية غضاضة أو ضيق . وقد كانت الحاجة بمبة من أولئك النسوة اللاتى يرين أن أوامر أزواجهن مقدسة لا سبيل إلى التهاون فيها . وكان الحاج والى يحب زوجته وما كان ترهلها يزيده إلا

حبها ، فقد كان الجمال كل الجمال أن تكون المرأة سمينة حتى لا يكاد زوجها يحيطها بذراعيه . ولولا رغبة الحاج والى اللاهفة فى أن ينجب أطفالا لما فكر فى الزواج فقد ازدادت زوجته جمالا على جمالها فى السنوات الطويلة التى عاشتها معه ، فإنه لم يكن يأخذ عليها يوم تزوجها إلا أنها نحيفة القوام . ولم يكن الحاج والى من هؤلاء الرجال الذين يميلون إلى العنف فى معاملة زوجاتهم ، بل كان رقيق المعاملة يحب حديث زوجته ويأس إليه . وكم تمنى أن يتخلص من رغبته فى إنجاب أطفال ، بل لكم خيل إليه أنه يتخلص من هذه الرغبة ولكنها ما تلبث أن تنور عاصفة فى نفسه ، وقد أخذ نفسه منذ تزوج صالحة أن يزيد من اهتمامه بالحاجة بمبة ، فهو لا يخرج من البيت إلا بعد أن يجلس إليها ويشرب معها قهوة الصباح . وقد بكر فى يومه هذا ونظر إلى الشباك فوجد السماء متجهمة صلبة الملامح .

وكانت النخلات التى يطل شباكه عليها تهتز فى غير سرور ، فقال فى نفسه : « أهذا ربيع ؟ ! اللهم اجعله خيرا » . ثم صلى ركعتى الصباح والتفت إلى صالحة يسألها :

— لماذا لا تصلين الصبح يا صالحة ؟!

— سأصليه عندما تخرج يا عم الحاج !

— أتصرين على أن تقولى يا عم الحاج ؟!

— تعودت قولها .

— إن أردت الحق فأنا أحب أن أسمعها منك ولا أدرى لماذا ، رغم أنها

تجعلنى أحس أنك صغيرة وأنى كبير ، ولكنى أحب أن أسمعها منك .. لا غيرها .

وضحكت صالحة وهى تقول :

— ١٩ —

- إني لا أستطيع أن أغيرها .
- لكن الحاج والى تجهم لحظة وقال :
- ألم تعلق الحاجة بمبة عليها بشيء ؟
- ودهشت صالحة بعض الشيء وقالت :
- تعلق على ماذا ؟
- على قولك يا عم الحاج .
- وبماذا يمكن أن تعلق عليها ؟
- قد ترى بها تدليلاً أو شيئاً من هذا القبيل ..
- لا تخش شيئاً ، فإن أحداً لا يرى فيها تدليلاً إلا أنت .
- لا تؤاخذيني يا صالحة ، فالحاجة بمبة ست طيبة ولا أريد أن أغضبها .
- يا عم الحاج لا تخش شيئاً ، فأنا أيضاً أحبها وأحترمها من أجل خاطرِكَ
- ومن أجل خاطرها هي أيضاً ، فأنا أعرف أنها لا تكرهني ، أو هي على الأقل
- لا تظهر لى إلا كل خير ، فلماذا أغضبها ؟
- الله يسرّها معك يا بنتى .
- إني أعمل لها كخادمة لا أعصى لها أمراً ، ولكنى أحس أن فى هذا
- راحتى مادام يرضيك .
- ولكنك راضية كل الرضا .
- كل امرأة تريد أن تكون ست بيتها .
- ألا يكفىك أن تكونى ست هذه الحجرة ؟
- يكفى أن أعيش معك يا عم الحاج .
- الله يرضى عليك يا صالحة .. لقد تأكدت أن الله راض علىّ منذ عرفت
- حقيقة أخلاقك ، وازددت تأكداً من رضاه سبحانه وتعالى يوم بشرتنى بمـ
- تحملينه لى فى أحشائك من خير .

— ٢٠ —

- أنت رجل طيب يا عم الحاج .
- أفوتك بخير .
- مع السلامة .
- وخرج الحاج والى إلى بهو بيته فوجد الحاجة بمبة جالسة فى مكانها وأمامها معدات القهوة فبادرها :
- صباح الخير يا ستنا .
- صباح الخير يا حاج . أهلاً .
- هل شربت القهوة ؟
- من غيرك ؟ لا والله لا أذوقها من غيرك أبداً .
- والله يا حاجة لا أجد للقهوة طعماً إن لم تكن بيدك .
- وبدأت الحاجة بمبة تعد القهوة وهى تسأله :
- إلى أين العزم إن شاء الله ؟
- إلى الشيخ حسنين المحلاوى ، فقد وعدنى اليوم أن أزوره وأشرب عنده القهوة وأتقاضى دينى .
- أتذهب إلى العشماوية فى هذا اليوم العاصف ؟
- يا حاجة بمبة نحن فلاحون .. إذا قبعنا فى بيوتنا من أجل الجو تعطلت أعمالنا .
- ربنا يكون فى عونك يا حاج والى .
- وكانت القهوة قد أعدت ، وأخذ الزوجان يحتسيانها وفى ذهن كل منهما أفكار تضطرب يحاول أن يسترها عن رفيق عمره ما وسعه الجهد . وقال الحاج والى :
- لو كانت القطارات تسير لوجدت الجرائد فى المحطة .
- لا عليك ، فالإنجليز يعملون بهمة فى إعادة الخطوط الحديدية .

— ٢١ —

- واللّٰه يا حاجة لا يضايقنى من هذه المهمة إلا أننى سأمر على الإنجليز .
- يا أخى مالك وماهم !؟
- يكفى أنى سأنظر إلى وجوههم المسلوخة .
- إذا وصلت إليهم فأنظر إلى الجهة الأخرى .
- على رأيك .. أفوتك بعافية ..
- انتظر .
- ماذا ؟
- سأقرأ لك الفنجان ..
- كدت أنسى واللّٰه يا شيخخة .
- انتظر .. أرى كأنك فى طريق ستحصل منه على مال ..
- لا يا حاجة هذه ليست فى الفنجان ، لقد أخبرتك الآن أننى سأتقاضى دينى من الشيخ حسنين ..
- انتظر ، وأرى كأنك جالس فى وسط الطريق .
- إنى سأقطع الطريق كله جالساً ، لأنى سأمتطى الحمار .
- وضحكت الحاجة بمبة وهى تقول :
- لا بد أنك ستقع من على الحمار يا حاج والى ، لأنى أراك جالساً على الأرض !!
- وضحك الحاج والى قائلاً :
- هذا هو الجديد . لا تشك أن هذا هو الجديد . لم يبق إلا أن أقع من على الحمار .
- هذا كلام فجنالك .. وأراك منصوراً واللّٰه يا حاج والى .. إن شاء اللّٰه أنت منصور على أعدائك يا حاج ..
- ربنا يسمع منك يا حاجة ، فأنت طيبة ونفسك طاهر .. أفوتك بعافية .

— عافاك الله .

وخرج الحاج والى إلى الطريق وقد ركب حماره ، وكان الفلاحون فى طريقهم إلى حقولهم وفتوسهم على أكتافهم ، وفى أيديهم دوابهم ، وتبادل الحاج والى التحايا مع الفلاحين ، وقد كان الحديث بينهم عن الثورة المشتعلة فى القاهرة والريف فقد كانت تسيطر على سماء مصر فى ذلك الحين أجواء من الحيرة والاضطراب .

أما أبناء مصر أنفسهم فقد كانوا بعيدين عن الحيرة كل البعد ، فقد عرفوا الغاية والطريق فهم يشدون الحرية ، والثورة هى سبيلهم إليها فهم يشعلونها فى كل ما تقع عليه أيديهم . تأتاهم الأنباء من مصر فيها قهر من اختل ، وعنّف وعسف وظلم . فلا يزيدهم شىء من هذا إلا إصراراً واندفاعاً ... فهم التيار الآخذ لا يصدّه عن متمناه شىء . سمعوا عن اعتقال سعد وصحبته فثاروا .. وسمعوا عن مأمور الضبط الذى قبض على الأجانب المستكبرين بالحماية الإنجليزية فأجرى معهم التحقيقات الرسمية ووقعها باسمه ثم استقال من الحكومة . فسمعوا أن شباب مصر يستطيعون أن يبلغوا الآمال وإن غاب عنهم القادة والزعماء . وكانت الثورة فى داخل النفوس .. فهى نيران . وكان وجود الإنجليز وحده كافياً أن يمد هذه النيران بوقودها ، فهى متأججة دائمة الأوار .

وانقطعت الأنباء عن الفلاحين فى قراهم بعد أن قطعوا الخطوط الحديدية ، ووقفت السلطات الإنجليزية تعيد الخطوط إلى أمكنتها وتمنع الحوادث ، فسكن الفلاحون ينتظرون ولكن الثورة فى نفوسهم لم تسكن ، فلا حديث لهم إلا عما كان من الحوادث وما يرغبونه من مستقبل .. وكان الحاج والى وهو فى طريقه إلى العشماوية لا يكاد يمر بجماعة من الفلاحين فى طريقهم إلا وسمع كلمة « سعد » أو كلمة « الإنجليز » أو كلمة « الثورة » أو كلمة

— ٢٣ —

« القبضان » .. لم يسمع الحاج والى فيما سمع كلمة السماء أو القمح أو الأرض ، أو كلمة من هذه الكلمات التى تعود أن يتبادلها أبناء القرية فى مألوف حياتهم .

وبلغ الحاج مشارف المحطة ، وعبر مواضع القبضان الحديدية المنزوعة ، معتمداً أن يلقى بنظره بعيداً عن الإنجليز . وما كاد يبتعد عنهم حتى أطلق تنهدة مستريحة وهو يقول :

— الحمد لله ..

وكانه خرج من مأزق حرج . وبلغ الحاج والى مقصده وتقاضى دينه وعاد طريقه وعبر موضع القبضان مرة أخرى وأوشك أن يبتعد ويطلق التنهدة . ولكن طلقاً نارياً كان أسرع من تنهده ١ .. وفى لحظة خاطفة كان الحاج والى جالساً فى الطريق فوق الحمار المتهاوى تحته .. ومر بذهنه أنه أصيب فلبث مكانه ينتظر أن ينبثق الألم من أى مكان فى جسمه . وطال لبشه ولكنه لم يتألم ، فأخذ يتحسس ما تصل إليه يده فعادت إليه يده كما أطلقها لم يعلق بها شيء يؤكد شكه . ففكر أن يعتدل فحرك جسمه فتحرك معه ، وتهياً ليقف وأخذ يرسم حركاته قبل أن يتحركها .. فراح جسمه يطاوعه فى كل ما يحاوله حتى استقام أمره أخيراً واعتمد رجله ووقف . ونظر إلى حيث كان جالساً قتيبن الحادث بأكمله ، لقد أطلق الإنجليز الرصاص على الجزء الأعلى من ذيل الحمار بأكمله ، لو لم يكن الحاج والى مشغولاً بما أصابه ، ولو لم يكن ضجيج الدهول والاضطراب محيطاً به من كل جانب ، لسمع القهقهات العالية التى كان الإنجليز يطلقونها بعد عيارهم . وقصد إليهم الحاج والى فى ثورة عاتية يمسك بأطرافها فى نفسه خوفاً من عيار نارى آخر يصوب إليه هو فى هذه المرة ، ما أرخص الأرواح عند الإنجليز وما ضر أن يموت هو كما مات الحمار ، فما كانوا يقيمون كثير فرق بين إنسان مصرى وحمار ، قصد

— ٢٤ —

إليهم يفكر فيما يقول أو يفعل ، وتقدم إليه قبل أن يصل شاب مصرى يرافقهم من قبل مصلحة السكك الحديدية وقال :

— على رسلك يا شيخ .

وقال الشيخ فى غضبته :

— أيرضى الله هذا ؟

— وهل يعرف هؤلاء الله ؟

— ماذا فعلت حتى يفعلوا بى هذا ؟

— لا شيء ، لقد تراهن أحدهم مع آخر على أنه يستطيع أن يصيب

الجمار الذى تركبه دون أن يصيبك ، وها هو ذا يضحك لأنه كسب الرهان .

لو كان خسر الرهان ، لخسرت أنت حياتك .

— الحمد لله .

— لا إله إلا الله ... لا إله إلا الله !

ونادى أحد الإنجليز الشاب المصرى فذهب إليه ، وأوشك الحاج والى أن

ينصرف ولكن الشاب ناداه :

— انتظر يا عم الشيخ .

فانتظر الحاج والى ، وجاء إليه الشاب وفى يده جنيه ذهبى وقال :

— خذ هذا .

— ما هذا ؟

— يقولون إنه ثمن الجمار .

وقال الحاج والى فى غيظ :

— قطعت يدى إن أخذته ..

— خذه بالله فإن أولاد الكلب هؤلاء لا يرحمون ، وقد يغضبون ويطلقون عليك أنت النار .. وما أسهل أن يقولوا بعد ذلك إنك حاولت أن تعتدى عليهم . خذ .. خذ ..

وأمسك الحاج والى الجنيه الذهبى ، وألقى به إلى الأرض فى شىء من الخوف وفى كثير من الحزم ، مراعيًا أن يسقط الجنيه بحيث يرى الإنجليز أنه رماه ، وبحيث يجدونه أيضاً إن تفقدوه . وأولى الجمع ظهره وأخذ سمته إلى القرية منتظراً فى الخطوات الأولى أن ترديه رصاصة محكمة التصويب فيقول فى نفسه : « أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله » . ويملاً نفسه شعور بالكرامة ، فهو يستأنى فى خطوه وكأنما يتحدى ، حتى إذا وثق أنه صار بمنأى عن مرمى الرصاص منهم سار طريقه فى خطوات متقلبة يحمد الله أن نجا ، ويملؤه شعور آخر بأنه مظلوم ، تختلط فى نفسه ألوان من الغيظ ومشاعر من العزة .

(٤)

لم يكن بيت زين العابدين بك باذخ الفخامة ، وإنما كان رحب اللقاء
تستقبل الداخِل إليه شرفة واسعة ليست مرتفعة على الأرض إلا ببعض
درجات قلائل ، ثم هي تفضى إلى بهو كبير تحيط به من الجانبين حجرات
واسعة للاستقبال ، وأما الطابق الأعلى منه فهو حجرات للنوم .

وتحرص بهية هانم زكى على العناية بالمنزل بغاية ما تستطيع من نظافة وإن
كانت الفئران كثيراً ما تعدو على نظافتها بما لا تحب . فهي تطاردها ما
وسعها الجهد . فبهية هانم سيدة نشأت في بيت النظافة فيه قطعة من الدين
والدين فيه هو كل شيء ، فهي لم تقل يوماً لزوجها إلا ما يرضيه ، شأنه أن
يأمر وشأنها أن تطيع دون أن تحاول تعليل أو امره أو مناقضتها . ولولا ما
يشغلها من إنجاب الأطفال لسعدت بحياتها في ظل كل السعادة ، فما ينقصها
من حياتها شيء إلا أن تصبح أمّاً ، فهي تسعد حين تنظر إلى المرأة غاية
السعادة ، إنها جميلة القسمات : فم متسع بعض الشيء ، يعلوه أنف صغير ،
تحيط به وجنتان فيهما امتلاء وفيهما نعومة وإشراق ، يغطى الشعر الأصفر
أذنيها الصغيرتين ، بادئاً من رأس متسع ، تاركاً بينه وبين العينين السوداوين
جبهة صافية عريضة . وبهية مملئة القوام في غير إفراط ، وإنما هو القوام كما
يشتهيهِ زوجها طولا وعرضا . ولم تكن بهية قد أدركت الخامسة والثلاثين من
عمرها ، وهكذا كان أملها في الإنجاب تمهد له هذه السن الباكِرة أن يزدهر
ولا يتضاءل .

كان الوقت مساء ، وقد صعد زين العابدين مبكراً من الطابق الأدنى
وقال لها مبتسماً :

- هيه . ما رأيك لو سافرنا إلى مصر في باكر ؟

- صحيح ؟ هل أصلحت السكة الحديد ؟

— ٢٧ —

- سيمر بنا أول قطار إلى مصر صباح غد .
- ولكن لي شرطاً .
- ألك شروط أيضاً ؟
- شرط واحد .
- آخذك معي إلى مصر لترى أباك وأمك وتعلمي شروطك أيضاً .
- قلت لك إنه شرط واحد .
- أمرك يا ستي .. قولي شرطك .
- أذهب إلى الدكتور نجيب محفوظ .
- ماذا ؟
- دكتور مشهور في مصر سمعت عنه من زوجة مأمور المركز ، ظلت عشر سنوات بلا خلف ، حتى كتب لها الدكتور محفوظ دواء فأصبح لها ولد و بنت .
- أمرك يا ستي .. أمرك .. ولكن لي أنا الآخر شرطاً .
- أمرك .
- لا تطلبني مني أن أقيم معك في بيت والدك .
- لماذا ؟
- لا أرتاح هناك .
- أمرك .
- اتفقنا .
- وكان الصباح ، ونزل زين العابدين إلى الطابق الأسفل بعد أن أوصى زوجته ألا تتأخر في إعداد الحقائق . وكان في انتظاره الحاج والى الذى جاء بناءً على موعد سابق .
- صباح الخير يا حاج والى .

— ٢٨ —

- صباح الخير يا سعادة البك .
- هيه ، هل أحضرت المبلغ ؟
- المائة جنيهه معي ، إلا أن لي كلمة .
- لا تقلها .
- لا بد أن أقولها .
- يا حاج والى إن لم أتمتع بمالى فلنم أتركه ؟ ... هأتلدا ترى .. لا ولد ولا بنت .
- يا سعادة البك العمر أيامك طويل ، وقد بعث حتى الآن ما يقرب من الخمسين فداناً ، ماذا تفعل غداً إذا رزقك الله الولد أو البنت ؟
- هل كان أحد يصدق أننى سأخلف .. وهأنذا أنتظر مولودى ..
- اعمل معروفًا يا زين العابدين بك ، كففاك بيعاً .
- ربنا يسمع منك يا حاج .. لك حق ، من يدري ؟ فها نحن أولاء سنذهب إلى الدكتور نجيب محفوظ فى القاهرة .
- إن شاء الله ربنا يستجيب لدعائنا .
- ربنا يهينى الخير يا حاج .
- على بركة الله ... تفضل المبلغ ..
- العقد الذى معك سليم ..
- نعم .. أبفاك الله .. نحن جميعاً نشهد لك بأن بيوعك شريفة وعقودك نظيفة والحمد لله .
- الحمد لله .
- أستأذن أنا .
- مع السلامة يا حاج والى .

وقام الحاج والى وخرج . وظل زين العابدين وحده يفكر فيما قال له الحاج ، ثم ما لبث أن أبعدته عن ذهنه وقام إلى شرفه داره يذرعه في انتظار موعد القطار ، وألقى نظرة إلى الشجر الذى يحيط بيته ، فوجد طيوراً مطمئنة الجلسة فوق أعرافه .. ما الذى يمسك بهذه الطيور هنا ؟ .. لماذا لا تذهب إلى القاهرة ولها أجنحة ؟ .. أهو الأمن الذى يشيع حول بيته ، فهو لا يصيد الطير فليس ثمة صوت قذيفة يسمع . وهل يكفى الأمل حتى تستقر الطير فوق أشجاره .. ما لها لا ترود السماء والأشجار ؟ إنها غبية هذه الطيور ، غبية .

ومال زين العابدين بك فجأة فأمسك بحجر وألقاه على شجرة حافلة بالطير ، فانبعث الحمام واليمام صاعداً فى السماء ، وحوم مرة ثم أتبعها بأخرى ، ثم عاد إلى الشجرة واطمأن به المقام ، وزين العابدين ما يزال يقول :

— غبى هذا الطير غبى .

حان موعد القطار ونزلت بهية هامت تتقدمها الحقايب ، واستقبل الزوجان العربية إلى الخطه ، وأقبل القطار بعد قليل بطيئاً فى قدومه ، وكأنه يتحسس طريقه ليستوثق أن الإصلاح قد تم ياتقان ، وحين بارح القطار الخطه بطيئاً نظر زين العابدين إلى السماء وارتاحت نفسه حين رأى يمامة تسير بجانب القطار وكأنها تسابقه ، ثم ما لبث أن انشغل عن السماء بالأرض . وعاد ينظر إلى الطريق الذى انقطع عن السير فيه شهراً طويلاً ، وشاركته بهية هامت فى الصمت والنظر إلى الطريق حتى إذا وصلا إلى القاهرة طلبت بهية فى تردد أن يذهب إلى الطبيب أولاً ما دام قد وصلا فى موعد مناسب ، والتقى طلبها برغبة زين العابدين الذى أراد أن ينتهى من هذه المهمة ليفرغ بعد ذلك إلى القاهرة التى بلغ شوقه إليها أقصى مداه . وتم لهما ما أرادا وعادا

— ٣٠ —

من عند الطبيب وقد كتب الدواء للست ، واستقبلت التذكرة بأمل عريض مشرق ، واستقبلها زين العابدين كما تعود أن يستقبل كل وصفة جديدة يجيء بها إلى زوجته .

واشترى لها الدواء وذهب بها إلى بيت أبيها ، وقبل أن يدخل قال سائق العربة الأجرة :

— هل أنتظر سعادتك ؟

وبدون وعى قال زين العابدين :

— نعم .

وصعد فادى زيارة عاجلة ثم استأذن وخرج .. إلى القاهرة .

* * *

كان « بار الأنس » هو البيت الحقيقى الذى يقطنه زين العابدين حين يأتى إلى القاهرة ، وكانت صديقه فاطمة العراقية .. فتاة أثقت إرضاء الرجال ، فنصبتها من زوار البار هم الأغنياء الذين يحبون أن يبذلوا أموالهم فى كرم وإسماح . وقد كانت فى هذه الشهور التى غاب فيها زين العابدين قد وطدت صداقتها بوجيه آخر من وجهاء القاهرة الذين لم تمنعهم الثورة وتقطيع الخطوط الحديدية من زيارة البار . وهكذا كان دخول زين العابدين إليها أمراً لا تستقبله بالحفاوة والترحاب فى دخيلة نفسها ، وإن كانت قد أبدت له كل ما تعلمته طوال حياتها العريضة من حفاوة وترحاب . جلست إليه بضع دقائق، ثم استأذنت وقامت إلى زميلتها أنيسة ولعة وقالت :

— هذا السوار يعجبك من زمان ؟

— نعم .

— وهذا القرط ؟

— ما شأنك ؟



- الذى أحضر السوار والقرط هو هذا الرجل الجالس هناك .
- نعم أعرفه زين العابدين .
- يدى مشغولة فى هذه الأيام بغيره .
- فأنت تتنازلى لى عنه .
- بعينك .
- فماذا تريدان ؟
- كم تدفعين لأتركه لك ؟
- أعطيك أول هدية يحضرها .
- وإذا كنت خائبة ولم تستطعى أن تنالى منه هدية مناسبة فماذا أعمل أنا ؟
- وماذا أعمل أنا ؟
- تدفعين فيه ما أطلبه الآن . والله يهنيك به بعد ذلك ..
- قولى .. ماذا تريدان ؟
- هذا المصحف الذى يتدلى على صدرك .
- هذا .. لقد ثمنته بعشرين جنيها .
- أنت تعرفين أننى أستطيع الاحتفاظ برجلين وبعشرة عند اللزوم .
- النهاية .. أمرى إلى الله .. خذى .
- وخلعت أنيسة المصحف وتقدمت هى وفاطمة من مائدة زين العابدين وجلستا ، وقالت فاطمة فى دلال :
- يا زين العابدين بك .. أنت فاجأتنى بزيارتك ، وأنا الليلة مشغولة فى فرح ، وقد رجوت أنيسة أن تصاحبك الليلة .
- يا متى أهلا بأنيسة .

- ٣٣ -

وتم الاتفاق دون أى اعتراض من زين العابدين ، فما كان يمكن أن يعترض بمشهد من أنيسة ، وهو بعد ليس حريصا كل الحرص على أن تطول صلته بفاطمة أكثر مما طالت ، وما كادت فاطمة تقوم عنهما حتى سارع هو يسألها :

- أبن نتعشى الليلة ؟

وكانت خبيرة بما يرضى الرجال .. خبيرة أيضاً بالأمكنة التى يمكن أن تقصد إليها إذا كان معها زبون على هذا الغنى الذى يتمتع به زين العابدين . وسرعان ما اكتشف فيها زين العابدين هذه المواهب فهو يسألها بعد العشاء :

- وأين الغداء ؟

- غداء .. أى غداء يا رجل ، ونحن ما نزال فى العشاء .

- أقصد غداً .. ماذا بك لماذا لا تفهمينى ؟

- غداً ؟ أى غد يا سعادة البك .. الكلام كان عن ليلة واحدة .

- وأنا لا أعرف لليلة واحدة .

- وأنا لا أعرف على ضرة . فماذا أنت فاعل بفاطمة ؟

- من باعك به .

- يا راسى .

- يا ستى ، كم من أفراح أحيتها ونحن أصدقاء ولم تعتذر .

- تعجبينى .

- عارف .

- نتغدى غداً فى روض الفرج .

- يا بنت .. فى الهواء الطلق على النيل .

- فاهمنى ؟

- وغداً سأكون فهمتكم أكثر وأكثر .

الضباب

وفى الغد قصد هو وأنيسة روض الفرج ، واختار منصدة على النيل وأمر بالغداء ، وطلب زين العابدين حمامة مشوية وطلبت هى كبابا ، وفى انتظار الأكل نظر زين العابدين إلى السماء وكأنها يريد أن يرى مقدار سطوع الشمس ، ولكن أدهشه أن وجد حداثات كثيرات تحوم حول المكان ، وقال لأنيسة :

- ماذا تفعل كل هذه الحداثات هنا ؟ ..

- كل مخلوق يبحث عن رزقه .

وسكت وجاء الطعام واستقر على المائدة ، وبدأ زين العابدين يأكل فقطع لنفسه لقمة خبز غمسها فى سلطة الطحينة ، حتى إذا ابتلعها مد يده إلى الحمامة المشوية وقد أخذ به الجوع مأخذه ، ولكن لم يكذب يده حتى انقضت على الحمامة المشوية حداة بارعة ، فإذا الحمامة المشوية فى مخالبها ، وإذا هى فى السماء مرة أخرى قبل أن يفيق زين العابدين من المفاجأة المدهلة .

* * *

خرج زين العابدين من الفندق يريد أن يقصد حى الصاغة فقد كان لابد له أن يشتري هدية للصديقة الجديدة . ووقف ينتظر عربة أن تمر به ولكن طال به الوقوف دون أن تمر به عربة ، وسئم زين العابدين الانتظار فراح يمشى آملا أن يلتقى بعربة . ولم يمر بذهنه أنه من العسير أن يجد هذه العربة فقد ترك القاهرة حين تركها قبل الثورة ، وقائدو العربات يلحون على المارة أن يركبوا ، وحين نزل فى أمسه من القطار لم يجد صعوبة تذكر فى الحصول على عربة ، وقد ظلت العربة معه حتى عاد إلى الفندق ، وسأله السائق إن كان يريد فى اليوم التالى . ودهش من السؤال ولكنه وافق ، وظن أن سائق العربة يريد أن يضمن رزق غده ، ولم يشأ أن يحطم آماله فوافق ، وظلت معه العربة طوال اليوم التالى حتى عاد إلى الفندق ، فهو إذن يجهل كل الجهل ما

- ٣٥ -

ألم بالمواصلات حتى فى القاهرة ، وقد أوقعه هذا الجهل فى خطأ يدفع ثمنه الآن ، فهو لم يطلب إلى السائق أن يعود فى يومه هذا فما كان يتصور أنه لن يجد عربية فى أية لحظة يشاء . ومرت به عربية كارو فوجدها مزدحمة ووجد بها قوماً لم يتعود أن يرى مثلهم على عربية كارو ، وتولته الدهشة . ولكن لم تكد تمر من أمامه حتى ظهرت عربية أخرى كارو أيضاً ، ولم تكن مزدحمة فإذا سائقها يقف بجانبه ويقول :

— تفضل يا بك .

— ماذا ؟

وأوشك أن يغضب ولكنه نظر فوجد الراكبين لا يقلون عنه وجاهة .

وقال أحدهم وهو أفندى أنيق :

— تفضل يا بك ، يظهر أنك حديث القدوم من الريف .

وقال زين العابدين وهو لا يزال فى دهشته :

— نعم .

— هذه هى وسيلة المواصلات الرسمية الآن ، فسائقو الحنطور مضربون .

وقال السائق :

— أتحب أن تجلس فى الدرجة الأولى ؟ ..

— ماذا . وهل عندك درجة أولى ؟

— نعم .. هنا فى المقدمة .. تجلس على وسادة ، وستجد الجلسة مريحة

وظيفة .

— وكم الأجر ؟

— قرشان . إلى أين أنت ذاهب ؟ ..

— إلى الصاغة .

— تفضل .

- ٣٦ -

ودفع زين العابدين القرشين وركب واستأنف الحديث :

- ولكنى ركبت بالأمس عربية حنطور .

وقال السائق :

- لأنك ركبتها من المخطئة .

- نعم . والتزام ؟

- أضرب عماله أيضاً .

وقال أحد الراكبين من الوجهاء :

- لقد وجدنا « الكارو » أمتع .

وقال السائق :

- إنها ركبة سلطاني !!

وقال زين العابدين :

- ولكن لماذا الاستمرار في الإضراب وقد سمح للوفد بالمفاوضة ، وتألفت

وزارة رشدى وأوشكت الأمور أن تستقر ؟

وقال الأفندى الذى حادته أولاً :

- لجنة الموظفين لا تزال مضربة وقد وضعت شروطاً للعودة للعمل ..

وهكذا استمر الإضراب .

وقال آخر :

- الإضراب مستمر وإن كانوا قد أخذوا يجمعون الاكتاب للوفد .

- أعانهم الله .. لابد أن ينجح الوفد فى مهمته .

واستمر الحديث بين الراكبين حتى بلغ زين العابدين الصاغة فنزل ،

واختار سواراً من الذهب الثقيل دفع فيه عشرين جنيهاً ، وعاد وقد عرف

طريقه فوقف إلى موقف العربات الكارو فركب الدرجة الأولى ، وصعد معه

شاب يلبس الملابس البلدية ، وأفندى لا تبدو عليه مظاهر الغنى ، كما ركب

إلى جواره فى الدرجة الأولى وجهه يرتدى ملابس الفقهاء وإن كان يبدو عليه أنه تاجر . وسارت العربى وبدأ الأفندى غير الأيسق حديثه مع الذى يلبس الملابس البلدية :

- يا ليتنى كنت أملك أكثر من هذا كنت قدمته .
- وماله ؟ كل إنسان يقدم ما يستطيع .. أنا لم أجد شيئاً ولولا زوجتى لظلمت حزينا طول العمر ؟
- وما له يا أخى ! أستمأ زوجين ؟
- نعم ، ولكنها عروس جديدة ولم أحضر لها إلا هذا العقد ..
- والله إنها عاقلة .
- رأت مقدار ضيقى فقالت لى بعه ، وحين يأتى المال تشتري لى غيره .
- هل بعته ؟
- لا .. سأقدمه إلى لجنة الاكتاب ، فألى أخشى إن بعته أن يخسوا ثمنه ..
- أنا اشتريته بعشرة جنيهات ، ومعى عقد شرائه .. سأقدمه هو والعقد إلى اللجنة ، واللجنة ستبيعه بثمنه .
- وسمع زين العابدين الحديث فعجب له . وراح يفكر فى هذه القاهرة التى انتفضت هذه الانتفاضة ، فلم يعديسمع شيئاً إنما هو طين من الدماء الفوارة فى عروقه . إنه البعث .. ووقفت العربى فما درى أين وقفت ، ونزل الأفندى والشاب فوجد زين العابدين نفسه ينزل معهما وسارا فسار خلفها ودخلا بيتا وقدم كل منهما اكتابته ، وأخذ كل منهما إيصالا وانصرفا ، وتقدم هو فقدم السوار الذى اشتراه ومعه العقد الذى يثبت ثمنه ، وسأله الذى يتولى جمع الاكتاب :

- اسم حضرتك ؟

ودون وعى قال :

- ٣٨ -

- أنيسة ولعة .

وقال الرجل مدهوشاً :

- ماذا ؟

وانتبه زين العابدين ليقول :

- اكتب الإيصال باسم أنيسة ولعة ..

وحين التقيا قدم لها الإيصال فنظرت إليه نظرة عميقة ، واحتضنته وهى

تقول :

- هذه أعظم هدية نلتها ، بل أظنها أعظم هدية سأنالها فى حياتى .. لقد

جعلت منى إنسانة لها وطن وعليها واجب نحوه .. أطال الله عمرك .

(٥)

كانت الحاجة بمبة جالسة فى بهو بيتها تنتظر الحاج والى أن يعود ، فهى

تريده فى أمر قد يدesh له ، ولكنها تراه عدلاً ولا بد أن تقوم به .

وكان يجلس إلى جانبها طفل فى الخامسة من عمره دقيق القسمات دقيق

الجسم أسمر البشرة رغم المجهود الكبير الذى بذلته يد رحيمة لتزيل عنها قدر

أيام إن لم يكن قدر شهور طويلة ، وكان يرتدى جلباباً من القماش الرخيص

وإن كان يبدو هو الآخر أنه انفلت من النظافة منذ لحظات .

وكان الطفل جالساً ذاهل النظرات فى عينه اليسرى دمعة مناسبة لا

يدرى لانسيابها سبباً ، وإنما هى تلازم عينيه كلما أزالها عادات تنسكب فى

إلحاح وإصرار . ولكن عينه تزجى مع الدمعة إشعاعاً من الذكاء لا يخفى ،

وقد حاول الطفل فى عزم ألا يبدو منه إلا الهدوء والطاعة فقد كان جديداً

على هذا المنزل ، جديداً على هذه النظافة التى تراكبت عليه فجأة ، فكان

مجالها جسمه وملبسه فى آن معا . فهو واجف صامت فى نظرتة انتظار لمجهول ودهشة بادية على محياه جميعاً . وقد حاولت الحاجة بمبة أن تطمئن وحشتة وتؤنس غريته ، فيلجأ الطفل فيها إلى هذه الطيبة لجوء اللاهف الغريب ، يستشف الحنان ويتلمس اليد الرحيمة أو الكلمة العطوف . لا يبحث عن مصادرها ولا يهتم ببواعثها ، وينشغل الطفل حيناً من الزمن ببعوضة تلح على يده فينظر إليها طويلاً وهى مستقرة لا تبارح مكانها ويجرّص الطفل ألا يحرك يده وكأنما يحاذر أن يقلق البعوضة فتلدغه . ولكن البعوضة لا تقابل عطفه بغير عضة فى يده فتختلج يده خلجة مذعورة داهشة تطيح بالحشرة بعيداً . ولكنها ما تلبث أن تعود إلى يده الأخرى فيتكرر ما حدث من الطفل والبعوضة ، وتجلو البعوضة عنه فيبحث عن شىء آخر يشغله فلا يجد إلا نور المصباح المتراقص لا يقر له قرار .

وما تلبث صالحة أن تدخل إلى البهو من حجرتها يتقدمها حينها ولسانها ، وهو لا يكف عن الدعاء للحاجة بطول العمر والثناء والسعادة ، والحاجة تتقبل هذا الدعاء فى تواضع وتهوين من شأن المعروف الذى تلهج بذكره صالحة . وتحاول صالحة فى إخلاص أن تتلمس أوامر الحاجة ، فهى تسألها إن كانت تريد شيئاً أى شىء وتحيب الحاجة إليها تريدها أن تستريح وتريح هذا الجنين الذى يرهقه معها الذهاب والنجى ذارعة به غرفات البيت لا تهدأ ولا تجعله يهدأ ، والطفل يسمع ما بينهما من نقاش لا يدرى من أسبابه شيئاً ، ويهم أن يسأل علام الشكر ، ثم تمسك بلسانه وحشة الغريب فيبتلع استفساره مع أحاديث كثيرة تتوارد على ذهنه ، ما إن تبدو على صفحة عقله حتى يقمعها فتعود مخفية مزاجعة إلى واد من النسيان ، حيث لا يعلم الطفل ولا يعلم أحد أين تذهب .

- ٤٠ -

ويأتى الحاج من الخارج ويرى الطفل فيدهش لحظة ، ثم يقول فى ترحيب طيب :

- أهلاً حسين .. مساء الخير يا حاجة . كيف حالك يا صاحبة ؟
وتجيب الزوجتان التحية ، ويتقدم حسين إلى الحاج وإلى فيقبل يده ،
ويقعد الحاج على الأريكة بجانب عمة ، وتقوم صاحبة وهى تقول :
- تعال يا حسين .

ويتبع حسين أمه إلى حجرتها ، وتقول الحاجة :
- لى طلب عندك .

- طلبك أمر يا حاجة .

- أريد أن يقيم حسين معنا .

- ماذا ... وأنت التى تطلبين ؟

- ومن يطلب هذا إذا لم أطلب أنا .. إن زوجتك صاحبة على وشك
الوضع ، ولا شك أنك سترى ابنك أحسن تربية ، وحسين أخوه على كل
حال ، وأنا لا أحب أن يكون أحد الأخوين متعلماً والآخر جاهلاً .
- ربنا يعطيك بقدر طيبتك يا حاجة .

- لو أقام حسين عند جده لما استطاع أن يعلمه ، وليس بكثير عليك أن
ترى ابن زوجتك كأنه ابنك ، فهو يتيم ويستحق العطف .
- يا حاجة أنت طيبة وصاحبة .

- ماذا قلت ؟

- البيت يا حاجة بيتك ، لك أن تقبلى فيه من تشائين وتخرجى منه من
تشائين .. وقد كان الأجدر بى أن أطلب أنا هذا الطلبة إكراماً لصاحبة ..
إنما أنت دائماً تسبقين إلى الخير ..

(٦)

كانت الريح عاصفة يشتد عصفها كل حين ، بدأت أول ما بدأت بذرات الرماد تحملها ، ثم قويت فأصبحت تحمل الأوراق الجافة المتساقطة على الأرض ، ثم راحت تخلع عن الأشجار الكافور أوراقها ، ثم اشتد ساعدها فإذا هي تحطم أعراف الشجر لا تفرق بين الكافور أو غيره من الأشجار . وراحت تحمل الأعراف في سرعة مجنونة تندفع إلى حيث لا تدرى مقصدا .

رياح عمياء مجنونة معرودة ليس فيها من الثبات إلا أنها تندفع إلى هدف واحد وإن كانت لا تدركه ، ولا تدرى لماذا اختارت هدفها هذا وهى مع ذلك تتردد أحيانا في الاندفاع إلى متجهها ، فهى تدور حول نفسها بما تحمله فى دوامة عيفة من الهواء والرماد وأعراف الشجر ولكن قليلاً ما يدور ترددها ، ثم هى تمضى فى سبيلها لا تلوى على شئ ، ربح قل أن تعرفها مصر . وسارع المطر ينهمر فهو السيل الجارف ينسكب أنهاراً من السماء ، فهو أنهار فى الأرض فياضة تحتفر الجرى فى إصرار وإلحاح . وكأنما أرادت السماء أن تنير الطريق للأنهار الناشئة الصغيرة فالبرق يخطف الأبصار إن وجدت فى العراء أبصار ، فالناس فى بيوتهم يعتصمون من اليوم الراعد والسيول والأعاصير بالجدران الصماء والضلف المغلقة من النوافد ، ويستعينون فى القرية بالمواقد والأفران على البرد الزمهرير القارس .

أما الحاج والى وأهل بيته فهم فى شأن غير شأن الناس ، فقد كانت صالحة تعاني آلام الوضع تقف إلى جانبها قابلة القرية الحاجة زينب أم عوضين ، والحاجة بمبة تعين بكل خبراتها التى تلقتها من المواقف المماثلة مع الصديقات أو قريباتها . بينما التبد حسين مكاناً قصياً يحاذر أن يعرقل الأرجل المتسارعة غدواً ورواحاً بين جنبات البيت تنسكب من عينه تلك الدمعة التى لا تفارقها والتى تعود إلى الانسكاب كلما أزالها حسين بيده . أما الحاج والى فقد جلس

- ٤٢ -

إلى الأريكة ممسكا بمسبحته يتمتم عليها بذكر الله ، محاولا ما وسعه الجهد أن يبدو فى هدوء الرجل وإن كانت طبيعة الإنسان تأبى عليه الهدوء أو القرار .
وخرجت القابلة فطلبت تبنا . وذهل الحاج والى ولكنه لم يسأل عما يدعوها إلى طلب التبن ، وإنما قام وصحب حسينا إلى التبن فملأ قفة وعاد هو وحسين يحملانها ويحملان على ملابسهما كميات كبيرة من ماء المطر ، وفى أقدامهما ألواحاً كاملة من الطين فقد كان لابد لهما أن يخرجوا إلى العراء ليصلا إلى التبن .

وعاد الحاج والى إلى أريكته وحسين إلى مكانه القصى ، وعادت المسبحة إلى أصابع الحاج والدমেعة إلى عين حسين .

ولكن آلام صالحة لا تنقطع تتنفسها فى آهات ينشق عنها كيائها كله ، والغرفة ذات الباب المقفل صماء لا تفلت أحدا من داخلها ليخبر الحاج والى ماذا يحدث فى الداخل ، وأخيرا انشق الباب على القابلة وهى تقول :

- لايد من طبيب يا حاج .. أنا لا أستطيع أن أقوم بولادتها وحدى ..

وقال الحاج والى :

- طبيب ؟ .. تقولين طبيب ؟

وخرجت الحاجة بمبة وهى تصيح :

- نعم يا حاج .. طبيب .. أم نترك البنية تموت ؟

- ومن أين آتى بالطبيب الآن ؟ كيف لى به ؟

- اطلبه من تليفون العمدة .. اطلبه يحضر بأية وسيلة .

وقام الحاج والى يريد أن يخرج ، وحينئذ تقدم حسين وهو يقول فى

صوت واهن حازم :

- أنا قادم معك يا أبا الحاج .

ويقول الحاج فى صوت طيب ولكنه حازم أيضاً :

- ٤٣ -

- لا .. ابقى أنت هنا يا حسين .

ويخرج الحاج إلى الطريق يشق سبيله في الرياح العاصفة يكاد لا يصبر ما أمامه من شدة الرياح وانسياب الماء حتى يصل آخر الأمر إلى بيت زين العابدين ، ولا يعرج على البيت وإنما يقصد إلى دار سائق العربة محمود أبو عبد الهادي فيطلب إليه أن يجهز العربة ليذهب إلى المركز ، ويوشك محمود أن يقول إن الخيل لا تستطيع المشى في هذه الأنواء العاصفة ، ولكنه يرى هفة الرجل ويقدر أيضاً ما سيناله من عطاء فيطيع ، ويركب الحاج العربة وتأخذ سبيلها إلى المركز ، ولكنها على رغم قوة الخيل تمشى بطيئة متمائلة تغرس عجالاتها في الطين كلما سارت . وحين عادت العربة بالطبيب كان الفجر قد أوشك أن يرسل نوره ، وكانت السماء قد أقلت عن المطر وكانت الريح تبدو وكأنها مسها الكبر ولكنها مع ذلك تأبى أن تعزف بالوهن فهي تجر الأشياء التي كانت تحملها في صدر النهار بخفة واستهزاء ، ولكن البرد كان لا يزال شديداً قارساً .

ودخل الحاج والى والطبيب إلى البيت ونادى الحاج والى :

- يا حاجة بمبة .

وخرجت إليهما الحاجة وما لبثت أن قالت :

- الحقنا يا دكتور .. تفضل .

ودخل الطبيب ودخل معه الحاج والى ، وكانت صالحة تلقف أنفاسها في ضعف وإصرار ، وكأنها هي تنتزع الهواء من الحياة النزاعاً . ومرت بذهن الحاجة بمبة خاطرة عجبت لها في هذا الموقف الضنك ، لقد رفضت أن يراها طبيب رجل وخطبت لزوجها هذه الفتاة لتلد له ، ولكن الله أراد - لحكمة لا يعلمها إلا هو - ألا يأتي الولد - إن هو جاء - إلا على يد طبيب رجل ، وصحت الحاجة من خاطرتها على صوت الطبيب :

- ٤٤ -

- اتركونا أرجوكم .. لا أريد إلا القابلة .. أياصح يا حاجة زينب أن تستعملى البن ؟ كم مرة أهلك عن هذه القدرة .. رأيت نتيجة عملك .. اتركونا أرجوكم .

وخرج الحاج والى وخرجت من ورائه الحاجة . واقتعدا الأريكة ولم يخرج الحاج مسبحته وإنما راح يسأل الحاجة بمبة فى إشفاق :
- هل الحالة خطيرة ؟

- ربنا يسلم يا حاج .. أنا لم أر فى حياتى ولادة كهذه .
وأراد أن يعيد السؤال فوجد أنه سيصبح سخيلاً كما وجد أنه لن يسمع الجواب الذى يتلمسه ، فلم يجد مناصاً من أن يعود إلى مسبحته ، فهو يخرجها ويأخذ فى إسقاط حباتها الواحدة بعد الأخرى فى محاولة فاشلة للهدوء أو الاطمئنان ، وحسين ينظر إلى الحاج والحاجة بمبة والدمعة فى عينه ، وشعور بالخطر يملأ جوانحه وإن كان لا يدري ما وجه الخطر أو أسبابه .
وطال غياب الطبيب وطال ، وباب الحجرة مقفل لا يند عنه إنسان يعرف منه الحاج ما يجرى داخل الغرفة .

وأطل الصباح فى تبشير الأولى وتهياً الحاج للصلاة ، ولكن الصوت الخالد الذى يستقبل به الأطفال الحياة ند عن الغرفة المقفلة بكاء . وتوقف الحاج باهتاً وراح ينظر إلى الغرفة ، ولكن بابها ظل صامتاً إلا عن البكاء . ولم يطق الحاج صبراً فاندفع إلى الباب وفتحه وقبل أن يقتحم الحجرة واجهه الطبيب مرتبكاً لا يدري ما يقول وعاجله الحاج والى :

- هيه .. خير يا دكتور ؟

وصمت الطبيب وقالت القابلة :

- أصبح لك ولد يا حاج .

وقال الحاج :

- ٤٥ -

- وهى .. صالحة .. كيف هى ؟

واستخذت القابلة حسيرة وألقت بنظرها إلى الأرض ، وقال الطبيب :
- تعيش أنت يا حاج .

وذهل الحاج وأقدم على سرير زوجته ثم أحجم ، وترك الغرفة نائر النفس
ممزق المشاعر بين أمل تحقق وروح أزهقت فى سبيل تحقيقه ، لا يدري ماذا
يفعل إلا أنه دون وعى استقبل القبلة وكبر وانتوى الصلاة ودمعات تموج فى
عينيه وقرأ الفاتحة ثم وجد نفسه يتلو الآية الكريمة :

بسم الله الرحمن الرحيم « قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء
وتنزعه الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء ، وتذل من تشاء . بيدك الخير إنك
على كل شىء قدير ، توبج الليل فى النهار . وتوبج النهار فى الليل ، وتخرج
الحى من الميت وتخرج الميت من الحى وترزق من تشاء بغير حساب » . صدق
الله العظيم .

(٧)

كان لابد لزين العابدين أن يعود إلى القرية بعد أن أقام أكثر من شهرين في القاهرة ، فصحب زوجته وعادا . وهناك علم بما ألم بالشيخ والى من فقد زوجته وإنجابه .. فما استراح من السفر وإنما ذهب إليه ، واستقبله الشيخ في وجه جامد فيه من الحزن أكثر مما فيه من الراحة ، ولم يكن زين العابدين يدرى هل الأجدر به أن يهنئ الشيخ والى بمولوده الجديد ؟ أم يعزيه على فقد زوجته ؟ ولم تطل به الحيرة فقد اختار آخر الأمر أن يجرى الحديث في مجال آخر بعيد كل البعد عن التهنية أو التعزية ، وإن كان هذان المعنيان يملآن رأسه ويختلطان في وقت معا بأفكاره ، فهو عاجب كيف يختلط أمران متنافران كل التنافر في وقت واحد بتفكيره ! كيف يأتي عليه حين من الزمن لا يدرى أيهما الأجدر به .. تهنية ؟ أم تعزية ؟ كيف تداعب الأقدار حياة الناس إلى هذا الحد فتجعلها خليطاً من الفرح والحزن ، ومزاجاً من الهناء والأسى ! ولم تشغله حيرته هذه عن أن يروى على الحاج والى ما شهدته في القاهرة من آثار الثورة ، والحاج والى يشارك في الحديث متعجباً قد أخذته الأنباء عما يعاينه من مشاعر مختلطة .. ولكنه في أعماقه لا يزال يعانى آلاماً حادة مما لقيه في سبيل تحقيق آماله ، حتى كاد يستقر في نفسه في يوم ما أنه هو المسؤول عما عانت زوجته من آلام . ولولا الحاجة بمبة وما أخذت تروضه به من حديث لأصابه التلف وعجز عن مواجهة الحياة .. ليس ينسى كيف احتضنت الوليد . وراحت ترعاه رعاية أم ، بل ليس ينسى كيف أبت أن ترك جد حسين وجدته بأخذانه ، وكيف بعثت إلى نفسه الرضا والطمأنينة .. إنه حين يقوم بشأن حسين سيرضى روح هذه التي ضحكت بحياتها وهي تهب له أعز أمنية تمنّاها في حياته .. وليس ينسى كيف راحت تقول لسيدة أم غسل وزوجها محمدين أن حسين سيكون لها بمنزلة الابن وهي التي لا ولد

ها.. ليس ينسى الحاج والى شيئاً من هذا . وكيف له أن ينسى أنه بهذه اليد
الكريمة التى تولته بها الحاجة بمبة استطاع أن يعود إلى الحياة ؟ واستطاع أن
ينظر إلى طفله الوليد وقد كان يرى فيه جريمة ارتكبتها ليس لها من غفران ،
وكان يتصور نفسه أزهى روحاً بشرية ليحقق أمله هذا ! استطاع ويد الحاجة
بمبة تمسح نفسه الهالعة أن ينظر إلى ابنه محمد ، وأن يحمله ويهدده .. بل
استطاع أن يفرح به . واستطاع أن يعود إلى الناس وأن يجلس هذه الجلسة
التي يجلسها إلى زين العابدين فيسمع منه ويحس به ، فلا يذهل عن حديث يلقي
إليه إلا لحظات قلائل ثم يعود إلى ما كان فيه من حديث .

وألقي زين العابدين حملة فأفرغ كل ما كان فى جعبته من حديث . وكان
لابد للحديث أن ينتهى ، وانتهى وسكت زين العابدين وظل رانيا إلى الحاج
والى تواجهه فيه حيرته مرة أخرى . أيعزبه أم يهنئه ولم يكن زين العابدين
مداوراً فالتقى بحيرته فى خط مستقيم .

- حاج والى .. أنا حائر فيما أقوله لك .. ١٩

- وأنا والله يا بك حائر فيما وقع لى .

- أعزبك أم أهنتك ١٩

- أنا أيضاً لا أدرى يا زين العابدين بك ..

- أنت تعرف أنى حزنت لك ، وفرحت لك أيضاً !

- أعرف .

- ثم سعدت بما سمعته عن بقاء حسين عندك ..

- أتتصور أن الحاجة هى التى ألحت فى إبقائه ١٩

- الست التى تحطّب لزوجها لا يستغرب عليها شيء !

- إنها ست صالحة يا زين العابدين بك ..

- إنها من أعظم نعم ربنا عليك يا حاج ..

- ٤٨ -

- وماذا فعلت مع الدكتور نجيب محفوظ ؟
- كل خير .
- ماذا ؟ أصحيح ما تقول ؟
- والله إلى الآن لسنا متأكدين ، ولكن الغالب أن يكون الله قد جبر خاطرنا ..
- إن شاء الله يا سعادة البك .. إن شاء الله .. رأيت ، ألم أقل لك قبل سفرك إن أحداً لا يعلم الغيب إلا الله ؟ .. رأيت ، ألم أكن محقاً ؟ والآن ألا ترى معي أن تضم يدك بعض الشيء .. لقد أصبحت مسؤولاً الآن ..
- أجعلتني مسئولاً من الآن يا حاج والى ، ونحن لم نتأكد بعد : هل هناك حمل أم لا ؟
- يا زين العابدين بك أنت أكثر من البيع .. كم فداناً بقيت لك ؟
- سبعون ..
- لا أظنها تكفى مصروفاتك .. أرجوك كف عن البيع .
- والله يا حاج والى إن كانت زوجتى حاملاً حقاً ، فإننى أعاهدك أننى لن أبيع بعد ذلك أبداً إلا ..
- إلا ماذا يا سعادة البك ؟ ..
- إلا لأسد الدين .. ثمن خمسة أفدنة أو ستة .
- أنا أسد الدين وأشتري الأرض ، ولا تبع بعد ذلك .
- هو ما تقول .. إن حقق لله الآمال ، فلن يكون إلا هذا .
- على بركة الله .
- على بركة الله .. وحسين هل يذهب إلى الكتاب ؟
- والله يا سعادة البك إننى أخاف أن أحسد هذا الولد ، ذكى جداً ويحفظ بسرعة ، وسيدنا يمدحه دائماً ..

- ٤٩ -

- أنت رجل طيب يا حاج . قالت الحاجة إنك ستعلم ابنك ، ولا يصح أن يكون أخوه غير متعلم .

- إن جئت للحق يا زين العابدين بك أنا منذ حادثة الإنجليز معي وأنا أتمنى أن أعلم أبناء مصر جميعاً ، وقد أرضاني الله فبجعل لي بدل الولد ولدين ..
- قواك الله ..

- إلا أن حسينا لا يجعلني أهتم بشيء له أبداً ، إنه حريص على ألا يشغلني بنفسه أبداً .

- طبعاً شعوره بأنك تفضل عليه .

- إنه يفضي بدخائله للحاجة وهي تعامله وكأنها ولدته .

وقبل أن يكمل جملته مر حسين بباب الغرفة فاستدعاه الحاج والى .

- يا حسين .. تعال .

ودخل الطفل إلى الحجرة في أدب هادئ وديع والدمعة لا تزال مناسبة من عينه ، وأمره الحاج والى أن يسلم على زين العابدين فسلم ، ثم مسح دمعته بيده وانتظر لحظة فسأله زين العابدين :

- إلى أين بلغت في القرآن ؟ ..

- إلى أول جزء عم .

- اجلس واتل علينا شيئاً مما تحفظ .

ولم يتوان حسين فاتخذ مجلسه على الأريكة ، وخلع نعليه وفي صوت طيب راح يقرأ في خشوع .

(٨)

أشرفت الفرحة على بيت زين العابدين إشرافاً لم يكن البيت يتوقعها ، بل كان سيد البيت أبعد الناس عن التفكير فى أن أمله هذا قد يوافيه التحقيق . ومن أين ؟ وقد مرت بزواجه السنوات الطوال ومحاولات زوجته لا تقف على طول هذه السنوات . وما كانت إطاعته لها فى الذهاب إلى الطبيب إلا إذعانا يائسا ، فما كان يجب أن يتعلق أمله بشيء ويقصدها عنه . ومن حيث لا يحتسب أشرق الأمل وتحقق وأنجبت زوجته له ابنة .. نعم ابنة .. وما غص من فرحته أن الوليد بنت وليست ولدا . إنما أحس الفرحة كاملة لا ينتقص منها شيء حين حمل الفتاة وأحس خفق قلبها بين يديه وسمع صراخها العريض ، أحس أن الله قد وهب له حياة ثانية يمسكها بين يديه . بل إنه أحس أنه يمسك الحياة كل الحياة بين يديه . وحين سرى هذا المعنى فى كيانه وأحس به فى أعماقه ليتملكه جميعاً ، أحس دموغاً عجيبة تطفرف إلى عينيه كأنها فيض فرحة لم يتسع جسمه الصغير على ضخامته أن يتسع لها .. وأقسم بينه وبين نفسه أن يهيى لهذه الفتاة من غدها خيراً ، وأقسم بينه وبين نفسه أن يكبح جماح شهواته حتى يبقى من المال ما يرد الحاجة عن هذه الطفلة الصغيرة التى لا تزال تسعى فى الهواء على أربع نحو مستقبل جديد . وكالعابد قد أتم طقوسه أعاد زين العابدين الوليدة إلى أمها ، ثم قبل الأم وقبل الوليدة وخرج من الحجرة ، ثم خرج من البيت ونظر حواليه ، ونظر إلى السماء ودارت عيناه ودارتا ، فوجد الطيور على أعراف الشجر مستقرة الجلسة مطمئنة هادئة كشأنها دائماً كلما اتخذت من أعراف أشجاره مكاناً لها . وفى هذه المرة لم يعجب للطيور مقيمة على أشجاره على رغم الأجندة التى تتمتع بها،

بل عجب من نفسه كيف كان يريد لها أن تظل ساجدة في السماء لا تراح إلى
 عش مطمئنة ، ولا تستقر إلى بيت آمن كأشجاره هذه ، وأنعم زين العابدين
 النظر فيما تخفيه أعراف الشجر عن العيون ، حتى إذا رأى عشرين متواريين
 بالأوراق انشرح صدره ، وأحس بالسرور والفرح والاطمئنان يشيع في
 نفسه جميعاً .

أما فرحة بهية هانم بابتها ، فقد كانت توشك أن تصبح جنوناً يحتاج إلى
 من يكبح جماحه . وهي معدودة فلم يكن إيجاب هذه البنية مجرد أنها أصبحت
 أما وما هذا في ذاته بقليل ، إنما هي هذه البنية الصغيرة ترد كيد الكائنات
 من أهل زوجها اللواتي كن يدعين أنها عاقر لن ترى لنفسها أطفالاً أبداً
 الدهر.. وكن يسرفن في الكيد فيغرين زوجها أن يتخذ لنفسه زوجاً أخرى ،
 وأن إيجابها أيضاً إنقاذها من هذا الفراغ الذي كانت تعانيه في أيامها الطوال
 بالقرية . لقد أصبحت أم .. أصبحت تؤدي الوظيفة الكبرى في الحياة ..
 إنها تشارك الحياة في تكوين الناس ، إنها .. هي نفسها أصبحت حياة وتمتد
 بالحياة روحاً أخرى ، روحاً تحيا وتنبض ولها قلب يخفق وعقل سيفكر ويدان
 ورجلان ، إنها أم .. أم .. قد لا تعنى هذه الكلمة شيئاً لسيدات كثيرات أما
 لها هي .. هي التي سعت إلى هذه الأمومة بكل دقة من دقائق قلبها على مدى
 السنوات الطوال التي تزوجت فيها ، وهي هي التي لم تترك سبيلاً إلى هذه
 الأمومة إلا سلكته .. أما لها .. لها هي . فكلمة أم القصيرة الحاسمة هذه تعنى لها
 كل شيء ، لم تعد تريد من الحياة شيئاً آخر .. لا .. لا تريد ولداً ، لا تريد إلا
 أن يطيل الله عمر ابنتها هذه فإنها هي التي منحها هذا القلب ، وقد كانت
 تقول ويا طالما قالت : إنها على استعداد أن تتنازل عن إحدى عينيها لتتال
 هذا القلب . وقد كانت جادة فيما تقول ولا أحد يدرى هل كان مصدر
 الجدل فيما تقول أن أحداً لن يطلب منها عينا ليعطيها وليداً أم لا ، ولكنها

- ٥٢ -

كانت جادة على أية حال ، فكيف بها وقد جاءها الوليد دون أن تتنازل عن عيناها ؟ ألا إنها لا تريد من هذه الحياة إلا أن تبقى عليها لقبها : « أم » دون زيادة . شكر لله ، شكراً لله . وفي غمرة فرحتها أمرت أن يُشترى خروف وثلاثة من الديكة الرومية ، وخمسة أزواج من الفراخ وعشرة أزواج من الحمام ، وأن ترسل جميعها إلى الدكتور نجيب محفوظ بالقاهرة . ولا يعنيها ما يصنعه الدكتور بهذه الهدية .. ولا كيف سيحافظ عليها ، إنما كل ما يعنيها أن ترسل إليه هذا الشكر ممثلاً في هذه الحيوانات ، وقد ظلت تقول في نفسها : « لو استطعت أن أرسل له الدنيا جميعاً لأرسلتها وظللت مقصرة » .

(٩)

أتم حسين تعليمه في الكتاب وختم القرآن حفظاً ، وقد كان يحب أن يترنم بما حفظ ، وكان يحلو للحاج والى أن يطلب إليه من حين إلى آخر أن يرتل بعض أجزاء القرآن فكان الفتى يسارع إلى الطاعة ، سعيداً غاية السعادة أنه يستطيع أن يلبي طلباً لهذا الرجل . وكان في قراءته خاشعاً تدمع عيناه معاً في صمت وروحانية ، كانت هذه الجلسات التي يجلس فيها حسين مرتلاً القرآن في غير تجويد أمام الحاج والى هي أجمل لحظات حياته ، كان يحس أنه يستطيع أن يكون مفيداً وأنه يستطيع أن يمتنع هذا الرجل الذي يعوله في غير ضيق به ، بل إله يوسع أمامه آفاق المستقبل في إقباله أب وفرحة كريم . وكانت السن قد تقدمت بحسين فأصبح يعرف تمام المعرفة موقفه من الحاج والى ، وأصبح يشكر هذا الموقف في نفسه أعظم الشكر وأصدقفه فهو دائماً حائر بهذا الشكر .

ماذا بيدى أن أفعل لرد فضل هذا الرجل ، وماذا بيدى أن أفعل لأرد فضل الحاجة ؟ ماذا فعلت لأنال هذا الحنان منهما ؟ سيد أبو عبد الكريم يعيس مع أمه وأبيه فهما يضربانه فى كل يوم ليترك الكتاب ويذهب إلى الغيط . إلى أى مصير كنت ألقى لو أننى عشت مع جدتى وجدى ، فلاح يصبح بالطعام لجده ، ويمسى بالماشية يعود بها إلى البيت .

وأنظر إلى نفسى الآن ، فتى يحيط به الاحترام إن مشى فهو لا يمشى فرداً إنما يحمل كلام الله ، ولكن أحمل كلام الله ولا أفهم معناه ، ألا أفهم معناه أنا ؟ هيه .. أأخادع نفسى أيضاً ؟ لأذهبن من فورى إلى الحاج سالم فحضر الدين فأخذ عليه التفسير ، فقد درسه فى الأزهر الشريف . وليس فى البلد من يفقهنى فيه مثلما يستطيع هو أن يفعل . ولكن أتطول بى هذه الدراسة ؟ ومالى لا أذهب مباشرة إلى الأزهر الشريف ؟ لقد ختمت القرآن . أترأى أريد الذهاب إلى الأزهر لأخفف المؤونة عن كاهل الرجل الطيب أم أنى أزين لنفسى أنى عفيف وأنا أتحرق شوقاً للذهاب إلى الأزهر لألبس العمامة والجلبة والقفطان . وأروح فى البلد وأغدو فلا والله ما الشيخ سالم ببالح ما أبلغه من الفخامة والمهابة . والبنت هنية أم عبد الحميد التى لم ترض أن تلعب معى لتأتين صاغرة تقبل يدى وطرف جبتى ، فأى مكانة فى العالم أرفع من مكانتى ؟ لتكون الجبة الخضراء فاقعاً لولها يسر الناظرين ، وليكون القفطان زيتونياً .. أيشترى لى الحاج والى ما أطلب ؟ أيقبل أولاً أن أذهب إلى الأزهر؟ .. سأذهب فإن جبنى للحاج والى لن يجعلنى أغير مستقبلى كله من أجله . إننى على أتم استعداد أن أقدم له حياتى ، أما مستقبلى فهو لى وحدى مادام لا يريد حياتى . مادمت سأعيش فأنا الذى سأصنع مستقبلى بيدى ولن يصنعه لى أحد . أراه منذ اليوم يتكلم عنى أنى سأصير محامياً ، وعن محمد أنه سيصير طبيباً ، ومحمد لا يزال فى الخامسة يتلقى أول دروس الكتاب ولكن

- ٥٤ -

الحاج يرسم المستقبل لكلينا .. لن يكون هذا . لا .. لن يكون . ألا يقولون إن الثورة قد نشبت في مصر من أجل الحرية .. ما الحرية إن لم تكن حريتي في اختيار طريق حياتي ، وطريق حياتي هو الأزهر ، فيأني أحب أن أسير لابساً الجبة الخضراء والقفطان الزيتوني اللون ويقبل الرجال والنساء .. نعم وخاصة النساء وعلى رأسهن هنية يقبلون يدي ، وأرى نفسي عظيماً في القرية يحيط بي التوقير والاحترام من كل جانب .. بل إنني أرى المشايخ في البلد أيضاً يحيط بهم ..

وصحبا حسين من خواطره وأحلامه على صدمة عيفة من حمار يحمل حملاً عالياً من البرسيم ويسير خلفه طفل صغير لا يستطيع أن يرى الطريق ، فالطفل قصير ، وحمل البرسيم مرتفع شاهق في الهواء . وأغاظ حسين وهو يرى نفسه مصدوماً من حمار ، ولم يستطع أن يكتم غيظه فما أسرع ما دار حول الحمار وأمسك بالطفل :

- ولد .. أأنت الحمار أم هو ؟

- دعني .. اترك ملابسي .

- أترك الحمار يقودك يا ابن الحمار .

- لا شأن لك بي .

- كيف ؟ أترك حمارك يصدم خلق الله وتقول لا شأن لك بي .. طيب والله لأذهب بك إلى أبيك . ابن من أنت ؟

- دعني .. اترك ملابسي .. لا شأن لك بي .

وتجمع حول حسين والطفل نفر من القرية وراحوا ينحون على حسين باللوم حيناً أو قد ينحو بعضهم باللوم على الطفل ، وفجأة تقدم إلى ميدان المعركة رجل طويل القامة عريض الكتفين وأمسك بتلابيب حسين .

- ماذا يا ابن شحاته .. ألم تجد إلا ابني لتهينه ؟

- ٥٥ -

- لقد ترك الحمار يصدمني .

- وماله يا أخى .. أما عجيبة .. ألم يبق إلا أنت يا من تعيش عالية حتى

تتعدى على طفل صغير ؟

وأجملت الكلمة حسين فأطال النظر إلى الرجل ، ولم يستطع أن يمنع عينه الأخرى أن ترسل دمعة ، ثم ألقى برأسه إلى الأرض وأولى الجمع ظهره ومشى . وصمت الرجل العريض المنكبين كقاتل أدرك بشاعة جريمته بعد أن ارتكبها ، ونظر حواليه فرأى فى عيون الناس جريمته مجسمة فى نظرات آله . فما استطاع مكثاً وخف خطاه وراء حسين :

- يا حسين .. يا حسين .

ولم يقف حسين فعاد الرجل ينادى :

- يا شيخ حسين .

وأحس حسين حلاوة كلمة « شيخ » فتلكأ هونا وأدركه الرجل :

- أزعلت منى ؟

وصمت حسين .

- حقتك على ... هات رأسك لأبوسها .

ولم يدر حسين من أمر نفسه إلا أن دمعاته الصامتة أصبحت نشيجاً عالياً ، وواصل الرجل كلامه :

- إن الله غفور رحيم يا شيخ حسين .. يا رجل أنت حامل كلام الله

فاغفر لى .

وربت كتفه ثم احتواه فى حضنه الواسع ، وتجمع الناس الذين شهدوا موقفهما الأول وراحوا يجاملون حسين ، ويرجونه ألا يحمل على الرجل غلطة لسانه ، وتهافت النشيج من حسين واقترب من الصمت وقال الرجل العريض الكتفين :

- ٥٦ -

- لا تذكر ما قلته للحاج والى ، فإنه لو عرف ما قلت لن يعفنى من الزجر والتأنيب .. اصفح عنى يا شيخ حسين . وأقسم بالله لا أعود لها أبداً ..
ثم نادى بأعلى صوته على الطفل الذى كان يسير خلف الحمار فجاء فقال له :

- قبل يد الشيخ حسين يا ولد واعتذر له .

وقال الطفل :

- يا آبا أنا لم أره .

وزجره أبوه فى عنف :

- قبل يده قلت لك .

وتكلم حسين أخيراً مغمغماً :

- أستغفر الله .. لا لزوم لهذا .

وقال الرجل :

- اجعله يقبل يدك لينال بركتك .. أنت حامل كتاب الله ومبروك ..

اجعله يقبل يدك من أجل خاطرى .. أعطه يدك حتى أعرف أنك صفحت عنى .

وأمسك الطفل يد حسين فقبلها فى سرعة قبل أن ينتبه حسين ، وأحس حسين رضا فى نفسه وقال :

- أستغفر الله العظيم ، يا سيدى أنا متشكر على كل حال .. سلام عليكم .

ورد الجميع السلام فى مهممات وانصرف حسين وقد أصبحت رغبته فى أن يصبح شيخاً أعمق فى نفسه وأبعد غوراً .

لم يذهب حسين إلى الحاج والى وإنما قصد إلى الحاج سالم فخر الدين ، وهو رجل قطع من مراحل التعليم فى الأزهر شوطاً ليس بالبعيد ، وإنما كان

كل ما تعلمه كافياً لأن يجعل منه مفتى القرية ، فإنه يقصد الناس ليفسر لهم ما غمض عليهم من شؤون دنياهم ودينهم ، وقد كانت الدنيا عندهم تختلط بالدين في أغلب الأمور ، وقد كان الحاج سالم ذكياً يفصل في الأمور بمجدة ذكائه أكثر مما يفصل فيها بعلمه ، وكان جميل السمات ذا لحية مهيبة وضاح الجبين ، تتوسط جبهته تلك العلامة السمراء التي تختلف سماتها بين الدكنة والخفة حسب كثرة صلاة صاحبها أو قلة صلاته .. تلك العلامة التي تأخذ مكانها على جبهة المصلين جميعهم لا تفرق بين الصالح منهم والمرائي ، وكان الحاج سالم إلى جانب مكانته الدينية ذا عمل آخر بالقرية ، فقد كانت الودائع جميعها تأخذ في طريقها إليه فيحفظها لأصحابها حتى إذا احتاجوا إليها وتلمسوها عنده وجدوها كما أودعها إياه بربطتها كما يحلو لهم أن يقولوا .

كان الشيخ يجلس منفرداً حين دخل إليه حسين .

— السلام عليكم يا عم الحاج .

— وعليكم السلام يا ابني ورحمة الله وبركاته . أهلاً وسهلاً .

— أنا حسين بن شحاته أبو إسماعيل .

— أهلاً وسهلاً .. رحم الله أباك .. كان رجلاً طيباً .

— أريد أن أذهب إلى الأزهر يا عم الشيخ .

وتجههم وجه الشيخ قليلاً ، ثم قال :

— وماذا بعد ذهابك إلى الأزهر ؟

— وماذا بعد يا عم الشيخ ؟

— أى ماذا تنوى أن تفعل ؟

— أريد أن أحصل على شهادة العالمية .

— العالمية ؟!

- ٥٨ -

وسكت الشيخ قليلاً ؟. إذن فسيأتى له منافس فى القرية . نعم إن أمامه سنوات طوال حتى ينال الشهادة وربما مت أنا فى هذه الفترة ، ولكن ماذا يكون العمل لو أننى عشت .. أيتى هذا الطفل وقد حصل على الشهادة العالمية وأصبح أنا نسياً منسياً فى هذا البلد ؟

- وماذا تنوى أن تفعل إذا أخذت العالمية إن شاء الله ؟

- أريد .. أريد ..

وسكت فقد أصبح لا يدرى ما يقول . فما كانت آماله وأحلامه بصاحبة أن تلقى على مسمى الشيخ الجليل .. وقال الشيخ :

- أتنوى بعدها أن تقيم هنا معنا أم تأخذ طريقك فى القاهرة بعد ذلك ؟
وقال حسين متردداً :

- كل ما أريده الآن أن أحصل على العالمية .

- يا بنى إنها شهادة صعبة .

- أعرف ذلك .

- وقد سقط الكثيرون وهم يحاولون الحصول عليها .

- أنا أريد أن أفهم كلام الله الذى أحفظه ولا أفهمه .

وأطلق الشيخ تنهدة وقال :

- هل تصدق أن أحداً قد فهم كلام الله كله ؟

- لا بد أنه مفهوم يا سيدنا ولكننى أنا عاجز عن فهمه .. فأنت مثلاً

تفسره بكلام مفهوم واضح .. وأنا أريد أن أفهمه كما تفهمه أنت .

- يا بنى فهمت شيئاً وغابت عنى أشياء .

- لا بأس .. إنما أريد أن أفهمه .

- ولماذا ؟

وسكت حسين قليلاً ثم قال :

- ٥٩ -

- لماذا أريد أن أفهم كلام الله ؟
- نعم لماذا ؟
- لأعرف ديني .
- ألا تعرفه .. الحلال بين والحرام بين .
- نعم ولكني أريد أن أفهمه جميعه ، أن أدرس ديني على الأساتذة الكبار في الأزهر .. لأني .. لأني ..
- لأنك تريد أن تشرحه لغيرك .
- نعم .. ولأني أيضاً ..
- وسكت حسين لحظات حتى قال الشيخ :
- ولماذا أيضاً ؟
- ولأني أجد حلاوة في كلام الله لا أدرى أسبابها ..
- لعلك إذا أصبحت وكلام الله حرفتك تفقد هذا الشعور بالحلاوة .
- أفقدت أنت هذا الشعور يا مولانا ؟
- وبهت الشيخ ، ثم ما لبث أن قال ملهوفاً وكأنه يدفع عن نفسه تهمة كفر وإلحاد :
- لا .. لا أبداً .. أستغفر الله العظيم .. أستغفر الله العظيم .. إنه لا تغني الدنيا عن الآخرة .. لا .. لا تغني الدنيا عن الآخرة .. ماذا تريدني أن أفعل لك يا بني ؟
- أريد منك توصية لأصدقائك هناك .
- أكتب لك ما تريد إن شاء الله .
- بارك الله لنا فيك يا عم .
- بارك الله خطاك يا ابني .. مع السلامة .

(١٠)

كان حسين جالساً في بهو البيت إلى أخيه محمد ، وقد راح محمد يتلو السور القصار وحسين يستمع إليه ويصحح خطأه من حين إلى آخر . وكانت الحاجة بمة تجلس إلى الأريكة التي تحب الجلوس إليها وأمامها معدات القهوة وقد ارتاحت نفسها لمنظر الولدين تكاد تحس أنهما ابناها : نعم هما ابنائى .. أما الصغير فأمه لم تره ولم يرها ، وأما الكبير فإنه إن ذكر أمه فكما يذكر حلاًماً بددته اليقظة . هما ابنائى وإن لم ألدهما .. وقد كان الصبى والفتى فى شغل عما تفكر فيه الحاجة .. فأما محمد فمشغول بهذه السور القصار التى إن لم يحفظها انهارت عليه فى صبيحة اليوم التالى عصا الشيخ ، وأما الفتى فباحلامه التى يريد أن يسلك إليها السبيل ويخشى أن تعوقه عنها رغبة الحاج العنيفة فى أن يعلمه تعليماً مديناً .. فقد سمعه يقول للحاجة إنه يريد أن يقصد به إلى المدرسة الابتدائية فى المدينة آملاً فى أن يقبلوه فى السنة الثالثة ، وإلا ففي السنة الثانية . ولم يستطع أن يهاجم الشيخ فى آماله وهو يبينها له ، فصر ريثما تلوح فرصة أخرى فيكشف عن خواج أمله هو التى امتزجت بنفسه فهى تملأ عليه جوانب حياته جميعاً .

وانتهى محمد من حفظ اللوح وخرج إلى رفاق ملعبه . وظل حسين مكانه وتطلع إلى الحاجة يريد أن يقول ولا يقول ، فلا يجد ما يفعله إلا أن يسمح تلك الدمعة التى تلازم عينه ، ورأته الحاجة وهو يزيل دمعته فأحست خالجة عطف نحوه ، ورأت على شفتيه الكلمات وأرادت أن تصمت حتى يبين . ولكنها ما لبثت أن أشفقت عليه فقالت :

— هيه يا حسين .. ماذا تريد ؟

- ٦١ -

واندهش حسين ولكنه انتهر الفرصة فقال :

- أريد أن أذهب إلى الأزهر الشريف يا أم الحاجة ..

وقال الحاجة بمبة :

- أى نعم يا ابنى .. تذهب إن شاء الله .

- أخاف أن يرفض أبا الحاج ..

لماذا ؟

- أنا أعرف أنه يريدنى أن ..

ودخل الحاج والى قبل أن يكمل حسين جملته ، فصمت حسين وقام يستقبل الحاج ، ورحبت الحاجة بزوجها الذى اتخذ مجلسه على الأريكة .

والنفتت الحاجة إلى حسين ثم نظرت إلى الحاج ، وأحس الحاج أن بين الاثنين حديثاً يريد أن يرقى إلى مسامعه . بل أحس أن الحاجة تريد أن ترجوه فى شأن يهم حسيناً وقد كان يحب أن ترجوه الحاجة فى أمور حسين ، حتى يشعر بالراحة وهو يجيب مطالبتها . ولكن الحاج والى تظاهر بأنه لم يفهم شيئاً ، فأخرج مسبحته وراح يساقط حباتها مسبحاً فى ثممة وترقب ..

وقالت الحاجة :

- لنا عندك رجاء يا حاج ..

- قوليه يا حاجة .

- حسين يريد أن يذهب إلى الأزهر .

وجمع الحاج مسبحته فى حركة سريعة وقال :

- ماذا ؟

وقالت الحاجة :

- ولماذا لا يا حاج ؟

وتجاهل الحاج تساؤلها والتفت إلى حسين :

- ٦٢ -

- أهذا ما تريد يا حسين ؟

وأطرق حسين وهو يقول :

- إن شئت يا أبا الحاج .

- لماذا ؟

- أريد أن أتفقه في القرآن ..

- أهذا ما تريد حقاً ؟

- نعم .

- ولكن .. ولكن .

وصمت الحاج وألقى بصره إلى أمامه وراح يفكر .. أيهما أفضل لهذا

الفتى ؟ ..

من يعلم الغيب ؟ .. وأحسَّ كأن ضباباً كثيفاً يتكون شيئاً فشيئاً أمام عينيه

المتطلعتين إلى المستقبل ، ولم يفق الحاج من شروده إلا على يد الحاجة وهي

ترت ذراعه :

- وماذا في أن يتعلم الفتى الدين ؟

ونظر الحاج إلى حسين قائلاً :

- أخشى يا حسين أن تكون اخترت الأزهر لأن التعليم فيه لا يكلف مالا ..

- لا .. لا .. لا أبداً يا أبا الحاج .

- إن أمنيته أن تكون محامياً أو طبيباً .. فيأني أعتقد أن مصر في أشد

الحاجة إلى المحامين حتى يدافعوا عن حقوقها ، أو الأطباء حتى يشفوا المرضى

بها .. وهم كثير .. إنني فعلاً أرجو أن تكون واحداً من هذين .

وقال حسين وقد نكس رأسه :

- وأنا لا أريد من الدنيا إلا أن أنفلد رغباتك جميعاً ، ولكني أحس أنني لن

أوفق إلا في الأزهر الشريف ..

- ٦٣ -

وصمت الحاج والى قليلاً مداعباً حبات مسيحته ثم قال :
 - يا ابني أنا لا أحب أن أملئ عليك ما تفعل ، لتكون مشيئة الله نافذة ...
 تستطيع أن تجهز نفسك لتذهب إلى الأزهر بإذن الله .
 وأشرق وجه حسين وانبسبت أسارير الحاجة ، وأكمل الحاج والى
 تسبيحه وإن كان الضباب ما يزال جاثماً أمام ناظره .

(١١)

كان زين العابدين بك مسافراً إلى القاهرة ، وقد انتهز الحاج والى الفرصة
 فرغب إليه أن يصحب حسين ويمهد له السبيل في الإقامة بالقاهرة التي لم
 يرها الفتى قبل ذلك أبداً .
 وهكذا هبط حسين القاهرة لأول مرة في رفقة زين العابدين بك ، ولولم
 يكن في هذه الرفقة لعاد مرة أخرى طريقه إلى القرية وقد استقر في نفسه
 أن القاهرة جميعاً ترتحل ، وإلا فما هذا الزحام وهذه الضجة وهؤلاء الناس ،
 وما لهم جميعاً ملهوفين متسارعين تتصادم أيديهم أو يتصادمون جميعاً بعضهم
 ببعض ، كأنهم مطالب الحياة المتعارضة المتضاربة !! أهكذا المدينة يعجل أهلها
 إلى مقاصدهم في هذه السرعة اللاهفة وهذا الجذ الصارم ؟ ما لهم يمر بعضهم
 ببعض أو يحتك بعضهم ببعض فلا تحية ولا سلام ولا حتى اعتذار ؟ . مشدوه
 حسين مما يرى فهو ذاهل عما يحمله من أثاث ومؤونة . يتولى عنه زين
 العابدين بك الإنفاق على الحمالين ، وقد كان الأثاث قليلاً غاية القلة ،
 وكانت المؤونة كثيرة غاية الكثرة ، فالأثاث سرير وصندوق كبير ، والمؤونة
 سلال متكاثرة انسكبت عليه من حنان الحاجة بمبة ، ومن شعور جده وجدته
 بما عليهما من واجب نحوه ..

وفى غمرة الدهش والذهول وجد حسين نفسه مسوقاً مع الموجات المسوقة وقد أمسكت بذراعه يد زين العابدين لا تفلته ، وأحس لحظة باليلم وخيل إليه - وإن كان لا يدري لماذا - أن يدا ما تمسك هؤلاء السائرين جميعاً فهم قطيع سائر يلتمس المرعى أو يلتمس المأمن .

وخرج حسين إلى باحة المحطة الخارجية .. إن ثمة متسعاً كسعة الريف ، ولكن العربات الكارو والحنطور والسيارات والناس تعدو على هذه السعة ، فهي زحام .. ووجد نفسه فى عربة حنطور بجانب زين العابدين بك وكاد ينسى ما يحمله ، ولكنه نظر خلفه فوجد كل ما حملته إياه القرية قد وضع فى عربة حنطور أخرى فلم يملأ من فراغها إلا قليلاً . نعم إلا قليلاً ، فما أقل ما حمل من القرية من أثاث ، وما أكثر ما حمل من القرية فى نفسه .

وراحت العربة تسعى بهما فى شوارع القاهرة . الحصان يسير وقد وضعت حول عينيه من الجانبين قطعتان من الجلد ، حتى لا يبصر إلا ما يريد له قائده أن يبصر ، فهو يمشى بالعربة ولا يملك أن يبصر إلا ما تركه له قطعتا الجلد ، فالطريق أمامه ليس إلا بقية مما ترك له الغمامة وصاحبه مع ذلك لا يعفيه من الضرب فهو يسوطه من حين إلى آخر . ونظر حسين إلى الحصان . لقد عرف الحصان طريقه وإن تكن غمامة حول عينيه ، وإن يكن صاحبه يسوطه إلا أنه عرف طريقه ، أيسطيع هو إلا أن يعرف طريقه .. أتراه يعرف طريقه ؟ إنه تائه فى هذا الزحام وفى هذه الشوارع الواسعة ، ودون وعى أمسك بذراع زين العابدين وتمنى لو يبقى معه لا يتركه ، ولكن هيهات ، فإنه ليعلم أنه ما هو إلا بعض الوقت حتى يتركه زين العابدين فرداً يواجه هذه القاهرة جميعاً بكل ما فيها من ناس وخيل وعربات وعلم .

البيوت الفخمة يتضاءل بجانبها أكبر بيت فى القرية ، والمآذن الفارعة سامقة إلى السماء ، فالأذان منها دعوة من السماء إلى الأرض أن تشرئب إلى

اللّه هدى فى السبل القائم ، وضياء يبدد الظلمات ، وصفاء يدحر العتمة الكثيفة من الرغبات اللاهثة والمطالب المتزاحمة . والناس يعضون فى سبلهم لا يرفعون للمآذن عينا ولا يعينهم إلا ما يقصدون إليه ، وحسين يزداد ذهولا على ذهول ، وزين العابدين يتفزز على مقعده فى العربة يريد أن ينتهى من هذه المهمة لينصرف إلى قاهرته التى لا يعرف غيرها هناك فى البار ، ومع النسوة اللاتى يستبدل الواحدة منهنّ بالأخرى ضارباً بوعده لابنته — وهى بعد وليدة — عرض الأفق والعربة يسعى بها الحصان والسيوط يسوطه كلما جرى بضع خطوات فى أوقات تكاد تكون منتظمة ، فما فعل شيئاً من أجله وإنما هى رغبة سائقه وجهه أن يسوط شيئاً أى شىء ، دون أن تدعو لهذا حاجة من تلكؤ أو عصيان لأمر .

وفجأة انتقلت العربة من الشوارع الفسيحة العريضة إلى أخرى ضيقة ، ومازالت تضيق حتى أصبحت العربة لا تسير إلا بشق النفس فهى تزحف زحفاً ، وتنهال السياط على الحصان ويتدافع السباب إلى المارة ، فما تجدى السياط ولا يفلح السباب ، والتفت السائق إلى زين العابدين يسأله عما يريد من مناطق الدراسة ، وقال زين العابدين :

— أريد أن أجد بيتاً للشيخ .

وتنبه حسين فجأة أنه شيخ وأنه يلبس العمامة والجبّة الخضراء والقفطان الزيتونى .. لقد أذهلته القاهرة عن نفسه ، وعما يلبس ..

وقال سائق العربة :

— أعرف بيتا هنا به حجرة خالية على سطح .. أتريد أكثر من حجرة يا مولانا .. ؟

وابتهج حسين من كلمة مولانا ، وقبل أن يجيب كان زين العابدين يقول :

— وأقل من غرفة إن أمكن .. أين هى ؟

الضباب

- ٦٦ -

وقال السائق :

- نترك العربتين هنا ونذهب لنتفق .

وقال زين العابدين :

- لماذا .. ألا نستطيع أن نذهب بالعربة إلى هناك ؟

- البيت فى زقاق ضيق .

وقال زين العابدين :

- وهل البيت بعيد ؟

- لا .. إنه هنا على بعد خطوتين .

ونزل زين العابدين ولحق به حسين ، وتقدمهما السائق بعد أن أوصى

زميله الآخر أن يولى العربة عينا يقظة .

ومشى الركب ، لم يكن البيت على بعد خطوتين لا ولا ثلاث ولا عشر ، لا

ولا تصلح الخطوات وحدات لقياس المسافة التى يبعدها البيت عن المكان

الذى تركوا فيه العربة . لقد مشوا ما يقرب من كيلو ونصف كيلو .. ثم

توقفوا . وطلب إليهم السائق أن ينتظروا لحظات ريثما يلقي صاحب المنزل .

وصعد ثم نزل .. إن صاحب المنزل فى دكانه .. وأين الدكان ؟ .. على بعد

خطوتين أيضاً .. وقال زين العابدين :

- ألا نرى الحجرة أولاً ، حتى إذا أعجبنا نتفق .

وصعد السائق ثم ما لبث أن قال : تفضلوا .. كان المنزل مكوّناً من ثلاثة

طوابق ، ولكنها طوابق مرتفعة ، فدرجات السلم كثيرة ترتفع كل درجة عن

زميلتها ارتفاعاً مضنياً ، وهكذا راح زين العابدين بك ينتزع نفسه التزاعاً

ليبلغ حجرة السطح حتى إذا بلغ الركب الطابق الأخير الذى لا يعلوه إلا

السطح لاحظ زين العابدين ، كما لاحظ حسين أن الباب منفرج انفراجة

هيئة تسمح للعين أن تلتصص من الداخل إلى الخارج ، ولا تسمح للعيون

- ٦٧ -

الأخرى أن تتسلل من الخارج إلى الداخل . والتفت زين العابدين إلى حسين،
والتفت حسين إلى زين العابدين ! ولكن زين العابدين كان يلهث لا يستطيع
أن يقول شيئاً إذا أراد أن يقول .. وكان حسين يفكر أفكاراً غير محددة ولا
واضحة حول هذه الانفراجة التى طالعتهم من الباب الذى لا يعلوه إلا
السطح . وقال السائق .

— لقد ألفت لى زوجة المعلم بالفتاح من تحت الباب ، فأنا لا أعرف أين
الغرفة وأين الحمام ؟ ولكنى سأجربها على كل حال ..
وتقدم بمفتاحه يعالج الأبواب الثلاثة على السطح ، حتى إذا انصاع له
أحدها فتحة على مصراعيه وهو يقول :
— بسم الله ما شاء الله .. غرفة تشرح الصدر .. وها هو ذا الحمام أمامها
مباشرة ..

وقال زين العابدين مشيراً إلى الباب الثالث :
— ما هذه ؟

— هذه — والله أعلم — غرفة أصحاب البيت التى يغسلون بها غسيلهم ،
بطبيعة الحال ، سيكون الغسيل فى الصباح ومولانا سيكون فى الأزهر ، فلا
شأن له بهم .

كان التعب قد بلغ من زين العابدين مبلغاً لا يسمح له بالمناقشة ، فهو
يسأل حسين فى سرعة :

— أتعجبك الغرفة يا حسين ؟

ولم يجد حسين سبباً ألا تعجبه الغرفة فهو يقول :

— نعم .

وبعد ساعة أخرى كان حسين مستلقياً على السرير فى غرفته وحيداً فى
القاهرة على سطح أول بيت دخله غير بيوت قريته ، ودمعة عينه منسكبة ، لم

يزد عليها إلا دمة أرسلتها عينه الأخرى أحس أنها تريحه وهى تأخذ سبيلها على خده ، وإن كانت أسباب بكائه متخفية فى أعماق نفسه لا يدرى حقائقها ولا أسبابها ؟ وفى هدوء مد يده إلى صدره وتحسس الخطاب الكامن هناك ، حتى إذا تأكد من وجوده رفع يده إلى عينيه يمسح عنها الدموع .. إن قريته لم تتركه وحيداً فهذا هو ذا خطاب الحاج سالم فخر الدين الذى يوصى فيه رفيق دراسته الشيخ صالح الأشمونى بحسين خيراً ، فى جيبه يؤلس وحشته ويجعله يؤمل أنه واجد فى القاهرة إنساناً قد يوليه بعض عطف أو بعض اهتمام ، وحسب الغريب فى غربته بعض عطف أو بعض اهتمام .

(١٢)

أحسن الشيخ والى حين سافر حسين أنه لم يحقق فيه الأمل الذى كان ينشده من تعليمه ، وصبر نفسه أنه على كل حال ليس ابنه ، وازداد عزماً أن يعلم ابنه التعليم الذى كان يريد له ، وكأغما أراد أن يستعجل السنين فهو يفكر أن يدخل محمداً منذ سنه هذه الباكرة إلى المدارس الأميرية ، وهم أن يفعل ولكنه ما ليث أن تذكر أن سنه لا تسمح بذلك ، فانتظر على كره منه عازماً ألا يبدأ العام الدراسى الجديد إلا ومحمد تلميذ فى المدرسة الأميرية .

وكان محمد يذهب إلى الكتاب فى انتظام ، وكان يخاف عصا الشيخ التى يتناول بها المهملين من لداته ، فهو حريص على أن يحفظ اللوح فيجيد حفظه ، إلا أنه بعد أن سافر حسين والفرد به اللوح أصبح الحفظ بالنسبة إليه عملية شاقة يبدل فيها ساعات طويلة كانت تغلو بفضل حسين ليلعب فيها « الحكشة » أو ما يحلو له ولرفاق ملعبه من ألعاب .

فهو الآن لا يفرغ من حفظ اللوح إلا والشمس قد مالت للغروب ، فهو لا يصيب من اللعب إلا حظاً يسيراً ، ولكنه مع ذلك لا يتخلى عن حفظ اللوح مهما يفقد من ساعات اللعب ، فلعب قليل مع تجنب لآلام العصا خير من لعب كثير يعقبه هم كثير .

وكان محمد يذهب فى بعض الأحيان إلى بيت زين العابدين ليلعب هناك مع ابنته آمال وكان يصحبهما فى الملعب أطفال آخرون من بينهم رشاد أبو عبد الباقي . وكان رشاد يلاحظ اهتمام آمال بمحمد ويحاول جهده أن يثير اهتمامها به ، فقد كان يحس فيها شيئاً مختلفاً عن الفتيات الأخريات ، فملبسها غير ملبسهن ، وطريقة كلامها غير طريقتهن ، فهو يحس أن ثمة فارقا

- ٧٠ -

بينها وبين بنات القرية وإن كان لا يدرى سبب هذا الفارق ولا حقيقته .
وكان يرى في ذهابهم إليها دون أن تذهب هي يوماً إلى ملعبهم فى جرن
القرية فضلاً لها لا يمكن التغاضى عنه .

ولم يكن يدرى السبب فى أن الصلة التى تصلها بمحمد أقوى من جميع
الصلات الأخرى التى تصلها بأطفال القرية ، فما كان يعلم أن الحاجة بمبة
كثيراً ما تزور بهية هانم مصطحبة معها محمداً فى زياراتها ، ولكن رشاداً لا
يهمه من هذه الأسباب جميعاً إلا أن محمداً أقرب إلى آمال منه ، وهو لا يقبل
هذا فهو يتحين الفرص لينال من محمد نيلاً يصيب منزلته عند آمال ، وقد
واتته الفرصة من قريب .

كانوا يلعبون أمام بيت زين العابدين حين جاءت الحاجة لتزور بهية هانم
وكان الليل قد أوشك أن يخيم على القرية ، فرأت الحاجة بمبة أن ينتهى لعب
الأطفال فهى تنادى محمد وآمال وتصعد بهما إلى الطابق الأعلى . ويضيق
رشاد بهذا ضيقاً شديداً فإن أمه لا تكثر من زيارة بهية هانم كما تفعل
الحاجة ، ولا يستطيع هو أن يصعد وحده فما له من رفيق يجعل صعوده
طبيعياً ، ولكنه يأبى أن ينصرف مع الأطفال الآخرين الذى انصرفوا ، فهو
يمكث مراقباً لباب البيت منتظراً - وإن كان لا يدرى لماذا - خروج الحاجة
بمبة ومحمد .

وفى الطابق الأعلى يكون إجهاد اللعب قد أخذ من محمد مأخذه ، فما
هى إلا أن يريح جسمه إلى الكرسي حتى يهاجم النوم عينيه فيستسلم له فى
إذعان ودعة ، والحاجة بمبة مشغولة عنه بالحديث إلى بهية هانم ، حتى إذا
حان موعد الانصراف نظرت إلى محمد فى كرسىه فوجدته فى نومته العميقة ،
وتحاول أن توقظه ولكن بهية هانم تلح عليها أن تتركه يقضى الليل عندهم



- ٧٢ -

وتعدها أنها ستوقظه في الصباح ليذهب إلى الكتاب ، وتشفق الحاجة بمبة على محمد وتتركه وتأخذ سبيلها إلى الخارج .

وما تكاد تغادر باب زين العابدين حتى ينبت رشاد من ثنایا الظلام :
- أين محمد يا خالتي الحاجة ؟

- بسم الله الرحمن الرحيم ، ماذا تفعل هنا يا رشاد ؟

- لا شيء .. كنت هنا .. أين محمد ؟

- نام فتركته عند الست حتى الصباح ..

وفي الصباح أيقظت بهية هانم محمد وقدمت إليه فطوراً كريماً وتركته ينطلق إلى الكتاب ، ومر محمد بمنزله فأخذ اللوح وتوجه إلى الكتاب . وهناك كان رشاد قد دبر مؤامره ، فقد لقيه الشيخ في غصبة عيفة :

- أين بت الليلة يا محمد ؟

- في بيت زين العابدين بك .

ولم يزد ، فقد أمر به الشيخ فأمسك غلامان بقدميه ، والهال الشيخ عليهما ضرباً مبرحاً . وبينما كان الحاج والى يختتم صلاة الضحى فوجئ بضجة على الباب فنظر من شبাকে فوجد محمد على حمار يركى بكاء مرأ ، فخنق إليه فوجد قدميه متورمتين لا يستطيع أن يلمس بهما الأرض ، واحتمل الشيخ ابنه وقلبه ينفطر لهفا عليه ، وما إن أودعه السرير حتى قصد إلى الشيخ في كتابه ..

- لماذا هذا يا عم الشيخ عبد العظيم ؟

- ألم ترسل لي رشاداً أن أضربه لأنه بات ليلته خارج المنزل ؟

- لا ... لم أفعل .. وإن كنت فعلت أهكذا يضرب الأطفال ؟ .. لن يعود

محمد إلى الكتاب ثانية يا شيخ عبد العظيم .

- ٧٣ -

وخرج الحاج والى وقد ازداد إصراره أن يتوجّه محمد منذ الآن إلى التعليم المدرسى ، فهو يقصد إلى زين العابدين ويتفق معه على أن يشارك محمد آمال فى الدراسة المنزلية ، حتى يبدأ العام الدراسى الجديد فيذهب إلى مدرسة البندر .

أما رشاد فلم يكفه ما وقع عليه من عقاب الشيخ الذى حرم مما كان يفعله من تعليم محمد ، بل زاد الطين بلة أن محمداً أصبح رفيق آمال فى الدرس أيضاً لا فى الملعب وحده .

(١٣)

اشترى الحاج والى عربة وحصاناً حتى ييسر لخمّد أن يذهب إلى المدرسة فى الصباح الباكر ، وقد كان يشفق على الطفل الصغير وهو يصحو معه فى الفجر ، ثم يخرج إلى برد الشتاء القارس ليقطع ثمانية كيلو مترات إلى المدرسة . وكان الحاج والى كلما تساءل .. أتساوى الحياة هذا الجهد ؟ نبتت أمام عينيه تلك القطعة من الضباب جواباً عن تساؤله فيزداد على حيرته حيرة ، ولا يملك إلا أن يوقظ وليده فى فجر اليوم التالى فيصليان الفجر معاً ، ثم ينقل الطفل إلى مدرسته لا يدري ما يكابده أبوه من ألم لخروجه هذا ومن تساؤل وحيرة .. ألهذا كنت أتمنى لى ولداً .. ألهذا ضحت أمه بحياتها ؟ وضحت زوجته بكرامتها ؟! أنحىء بهم لنملاً حياتهم تعباً ؟ ونملاً حياتنا إشفاقاً ؟!

وماذا لقى محمد بعد من الحياة ، وماذا أفعل حين يوغل فيها ويتلقاها بوجهها هذا القاسى الجامد ؟ ويتصاعد الضباب أمام عينيه يغلق على نفسه منابت التساؤل والحيرة ويلقى بنفسه إلى دفاع الحياة .

- ٧٤ -

عاد محمد فى يوم من المدرسة وهو يحس رعشة تهز جسمه جميعاً ، فأسانه
تصطك فتصك جسمه كله كأنها المطارق ، وأطرافه ترتعش رعشة تهز كيانه
فهو كنبات هش ضعيف انصبت عليه ريح عاتية توشك أن تقتلعه من
الجدور .

وتلقته الحاجة بمبة ياشفاق وراحت تضع عليه الأغطية وتحيطه بزجاجات
الماء الساخن ، ولكن الرعشة لا تريم عنه فإنما هى فى مكان خبيء من
جسمه ، لا يدرك مكانها الماء الساخن ولا يصل إليها دفء الغطاء !!
وأقبل الحاج والى من الخارج فوجد ابنه على حاله هذه - فهو يسارع إلى
البندر ويحتلب الطبيب الذى يقرر أن الطفل قد أصيب بالتهاب رئوى حاد .
وحين يسأله الحاج والى :

- أخطر هذا المرض ؟

- كل الخطورة .

- وماذا أفعل ؟

- الأعمار بيد الله .. !

الأعمار .. وهل بلغت الحالة إلى ذكر الأعمار .. الأعمار .. أكل ما كان
ينتهى إلى هذا .. أكانت الحاجة بمبة تخطب لى ، وكان موت صالحة المسكينة
من أجل الالتهاب الرئوى .. أهو الذى يحصد ثمرة ما ضحت به المرأتان
الطيبتان ؟! من أجل هذا يأتى الأطفال ؟! ولدى . ماذا ؟ ماذا أنت فاعل
بى ؟ .. أهذا أملى بعد أن تحقق .. أكان قد تحقق من أجل الالتهاب الرئوى ..
أيرضى الله بهذا ؟ .. نعم يرضى . فما هذه الدنيا بالتى يجزى الله فيها
الحسن خيراً والمسيء شراً .. ألم يميت إبراهيم بن محمد رسول الله .. وحيد ..
مات طفلاً .. فلماذا لا يموت محمد بن والى ؟ وما محمد بن والى فى حساب
الدنيا ؟ مجرد روح صغيرة لم تتفتح بعد للحياة ، وما والى ؟ شقى من الأشقياء

قطع عمره على أمل أن يكون له طفل حتى إذا كان .. جاءه الالتهاب الرئوى . وفى الآخرة يتولى الله ثوابه .. ولكنى بشر .. لقد صبر النبى على بلواه .. أترى أصبر أنا ؟؟ يارب إنى أصغر من هذا الامتحان ، وأنت تدرى .. أنت تدرى أننى أوهى عظاماً وأقل صبراً من أن أحتمل هذا الابتلاء .. يا رب إلك تقول المال البنون .. وتقول ولبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين .. فليكن ابتلاؤك فى المال .. كل المال .. أما البنون فما عندى من بنين إلا محمداً هذا فدعه لى .. فما أنا بالذى يصبر لهذا البلاء .. إنى أعلم وإنك تعلم أننى أقل من هذا البلاء . يا رب .. يا رب ..

كان الدعاء والدواء والصبر هو كل ما يملك الحاج والى . وكانت الحاجة بمبة هى التى تقوم بتمريض الطفل فى حنان وأناة وامتثال تكاد لا تذكر إلا أنه ابنها ، فما عرفت لنفسها ابناً إلا بالتبني وما عرف هو أما إلا هى .. وفى بطء شديد شفى محمد ، وعادت الابتسامة إلى الحاج والى وعاد النوم إلى الحاجة بمبة .. أحس الحاج والى بسعادة .. سعادة لم يعرف لها مثيلاً فى حياته .. ما أحلى أن يكون لى ابن يحيط به الخطر ثم ينجو .. كأنما أصبح لى ولد جديد .. إنهم ليمدون قلوبنا بالسعادة والجدة هؤلاء الأطفال .. لا .. لا شىء يعدل أن يشفى ابنى من مرض خطير .. لا .. لا شىء يعدل هذا فى الوجود .

وواجهت الحاج والى مشكلة أخرى .. أيعود محمد إلى المدرسة فيتعرض للبرد مرة أخرى وللمرض ؟ .. وسرعان ما حسم المشكلة .. فماذا يصنع محمد إن لم يذهب إلى المدرسة !!؟

ومن جديد عاد الحاج والى يوقظ محمد فى الفجر فيصليان جماعة . ثم يفتل محمد إلى مدرسته ليواجه البرد الشديد والحر الشديد والعلم الثقيل .

(١٤)

كان زين العابدين جالساً في شرفة داره ينتظر عربته أن تعود من المحطة حاملة حماته وحماه الذى أ برق إليه أنه قادم فى يومه هذا .

وكان زين العابدين سعيداً فى انتظاره هذا ، فقد تولت ثلاثة كلاب أو كلبان وكلبة تسليته بتمثيلهم أمامه قصة الثلاثى الخالد الزوج والزوجة والعشيق ، وقد اندمج ثلاثهم فى أدوارهم اندماجاً أنساهم المتفرج الوحيد زين العابدين .

وقد اختارت الكلبة دور المنتظر لا تبح بعواطفها أو تصرفاتها جنوحاً ينبى عن حقيقة مشاعرها ، بينما راح الكلبان يعثران ويتجه كل منهما إلى الكلبة كلما خيل إليه أنه بلغ من عدوه ما يشتهي له من هزيمة ، فما يلبث الآخر أن يلحق به فى منتصف الطريق يرده عن الكلبة أن يصل إليها . ولم يكن زين العابدين يعرف أى الكلبين هو الزوج وأيهما العشيق فإنهم فى دنيا الحيوان يتقاربون فيختلطون ، ولكن زين العابدين رأى فى عيني أحد الكلبين ذلة والكساراً ، ورأى فى عيني الآخر توقحاً وجراً ، وكاد يعرف من هذه النظرات حقيقة كل منهما ، إلا أنه عاد فاختلط عليه الأمر لا يدرى مدى ما أصابه من صدق النظرة وقوة الاستنتاج . واستطاع أحد الكلبين ذو النظرة المتقحمة أن يصل إلى الكلبة آخر الأمر ، واستقبلته العاهرة استقبالا حاراً جعل الآخر كسير النظرات مذهولاً محجماً عن محاولة كان قد بدأها ليرد الكلب المنتصر ، وكأنما أصاب هذا الترحيب من الكلبة كبرياءه فهو ينعم النظر حيناً ، وتبدو عليه ألوان الحيرة والدلة والرغبة والزهد، ثم يولى الكلبين والمتفرج ظهره وينصرف عن المسرح جميعاً .

ولو كان للمسرح ستار لأسدل على الكلبين الآخرين ، فإن الرواية كانت بلغت ما يجب عنده أن تتخفى شخوصها بين الكواليس ، ولكن زين العابدين

ظل يرنو إلى الكلبين متشوقاً إلى القاهرة وصديقتيه الجديدة سنية شخلع حسيراً في الوقت نفسه لقلّة المال معه ، أسيفاً أنه لم يعد يستطيع أن يبيع أكثر مما باع فقد تضاءلت أرضه فأصبحت أربعين فداناً ، وما يستطيع بعد ذلك أن يبيع منها شيئاً ، ولا يستطيع كذلك أن يواجه ما تحتاج إليه سنية من مصروفات . ولا هو مطيق أن يهجر سنية أو البار فهو في دوامة من الحيرة يتخبط بين جدران خوف من الفقر ، ومن الرغبة العارمة لبقاء محبوبته ، ومن قلة الأرض لا يستطيع أن تغل له ما يكفى رغباته ، ولا يستطيع أيضاً أن تتضاءل أكثر مما تضاءلت . وقد كانت حيرته هذه قديمة ليس للكلاب فيها شأن إلا تذكيره بحقيقة تسيطر عليه أغلب الوقت . وقد كان بقاؤه بالقرية أكثر مما يضيق له ولكنه لا يملك إلا أن يبقى بها ، وإن كان هو لا يتولى زراعة الأرض بنفسه بل يؤجرها إلى الفلاحين ، فأشرفه على المستأجرين إشراف هين لا يستغرق من وقته إلا أقل وقته ، ثم هو يفرغ بعد ذلك إلى هذه الحيرة وهذا الضيق بالقرية ، وهذا الشوق اللاهف للقاهرة وسنية والبار .

أفزع الكلبين العاشقين صوت العربية وهى تأخذ موقفها أمام البيت وانتبه زين العابدين وهمّ يستقبل زواره فى حفاوة وتوقير فقد كان يعلم أن حماته وحماته لا يجبان شيئاً فى الدنيا أكثر من أن يلاقيا التوقير أينما ذهبا .

وتقدم زين العابدين من العربية وأمسك يد حماته ينزلها منها . سيدة فى الخمسين من عمرها ولكنها تتخذ من الملابس والحجاب ما يجعلها فى الستين ، فوشاح أبيض يحيط برأسها ، وخمار شفاف يدور حول أسفل وجهها الوردى اللون الذى لا تزال آثار نضرة تتخيل فيه ، وبين الوشاح على الرأس والخمار على الفم تطل عينان فيهما طيبة وفيهما ذكاء وفيهما حب سيطرة لا تجرد مجالا ولا متنفسا . أما قوام الست ازدهار الناضورى فكان معتدلا لا يهتم بنحافة ولا يعاب بإفراط سمته . ونزلت ازدهار هام وتبعها زوجها زكى

بك الناضورجى وهو ذو شارب يلقى منه كل عناية وتكريم ، أحمر الوجه قصير القامة أصلع الرأس حتى لا يفلح الطربوش الأحمر الزاهى فى إخفاء صلته جميعاً . إنما تظل قطعة كبيرة منها بادية من مؤخرة الطربوش حيث ينسدل الزر فى نظام وإحكام . وكأنما كانت هذه القطعة من الصلع تغافل الطربوش فتخرج إلى العيان دون أن يشعر بها .

وقبل زين العابدين يد حماته ، وانحنى وهو يسلم على حميه الخنساء لا تخطئها العين ، وشاعت فى عيني ازدهار هانم علائم رضى وهومت ظلال ابتسامة على شارب زكى بك ، وأخذ الجميع سيلهم إلى الطابق الأعلى . ومن ثم استقبلتهم بهية فى ترحاب يحيط به كثير من القيود فلا يبدو إلا فى تقبيلها ليد أبيها ويد أمها ووجنتها ، وإن كانت فى دخيلة نفسها تريد أن تحتضن كلا منهما وتقبله قبلات كثيرة عارمة ، وكأنما كانت آمال تدرى ما فى نفس أمها فهى تهاجم جدها وتعلق برقبته ويقع طربوشه على الأرض ويتخلج هو فى وقفته حتى ليوشك هو أيضاً ، ولكنه يتماسك وهو يغالب الضحك على فمه محاولاً بكل جهده أن يجعل من ابتسامته كشرة فلا يفلح جهده ، وتتركه آمال إلى جدتها ، فما هى إلا ضمة واعتناق حتى ينهتك ستر السيدة الوقور ، فالخمار فى الأرض والوشاح فى منتصف الرأس والسيدة غير غاضبة ولا عاتبة ، وكأنما كانت تشتهى هى أيضاً هذا اللقاء من ابتها ، فأجابت حفيدتها خوافى رغبتها . وبهية تحاول أن ترد الابنة العاتية فلا تحفل بها ، وزين العابدين ينظر فرحاً أن رأى طربوش زكى بك الناضورجى على الأرض لأول مرة فى حياته ، فهو لم يره قبل اليوم إلا منتصباً على رأس صاحبه لا يعيل ولا يحيد ، مثله مثل شارب زكى بك نفسه . ثم ها هو ذا اليوم يرى الطربوش فى الأرض والشارب مهوشاً من أثر تقبيل آمال ، وتعربد فى نفس زين العابدين ضحكة لا مبالية تذكره بالبار وسنية شخلع وهو يرى

- ٧٩ -

زكى بك ينحنى فى وقار إلى الطربوش يلتقطه مختلسا النظر إلى زين العابدين كأنما كان يريد أن يلتقطه هو بدلا منه أو كأنما يريد - على الأقل - أن يبدو وكأنه غير منتبه للطربوش الساقط وانحناء البك الكبير لإحضاره.

وتنتهى معركة الاستقبال ، ويجلس الجميع ويدور الحديث ولكن لا يكاد ، فإن زكى بك يقول فى أمر حازم :

- زين العابدين بك .. أنا سأخذ ابنتى وحفيدتى معى إلى مصر .

وتعجب زين العابدين وقال فى دهشة :

- نعم .. لماذا .. لماذا ياسعادة البك ؟

- البنت كبرت ، ولا بد لها أن تدخل المدرسة .

وصمت زين العابدين فإن هذا حق لا سبيل إلى النغاضى عنه ، وهو لا يريد لها أن تتعلم تعليما مشوها ، كما أن وجود ابنته فى القاهرة يجعل ذهابه إليها مقبولا أمام نفسه على الأقل ، ولكن لماذا تذهب زوجته ؟ نعم .

- ولماذا تذهب بهية ؟

- لتمكث معها فترة حتى تعود على المدرسة .

وأطرق زين العابدين ، وقال زكى بك :

- زين العابدين بك .. هل أنت مشغول هذه الأيام هنا ؟

- أنا .. لا .. أبدا .

- إذن تذهب أنت أيضا معنا ، وتدخل ابنتك إلى المدرسة وتتنزه فى ..

وقطع زكى بك جملة وتنحنح ، ثم استطرد فى لهجة جادة صارمة كأنها لا تعنى شيئا على الإطلاق .

- أظن أنك لاتمانع .. هيه .. لامانع .. هيه .

وأطرق زين العابدين وكأنه يمثل لأمر لا سبيل إلى التخلص منه .

- أمرك يا سعادة البك .. لامانع .. لامانع .

(١٥)

ثلاث سنوات مرت بحسين فى القاهرة .. ثلاث سنوات يذكرها وهو مستلق على سريره بجواره قطة تلوذ بيده الحانية عليها فى غرفته المنفردة مثله على سطح بيت ساقته إليه عجلة زين العابدين بك ، وأبقاه فيه خوفه أن يواجه البحث عن بيت جديد ، فقد كان يخشى أن يلقي من الغربة أكثر مما لقي ، والحجرة عرفها لمدة يوم ثم أسبوع ثم شهر أحب إليه من أخرى لم يعرفها قط مهما تكن تفضلها .. لا .. لا يريد أن يوغل فى الاغتراب أكثر مما اغترب ، فهو يبقى فى الغرفة ، باردة فى الشتاء حارة فى الصيف ، لكنه ألفها وألفته ، وقل أن يجد شيئا يالفه فى القاهرة الكبيرة الواسعة المترامية الأطراف . ومع الأيام التى أصبحت شهورا فسنين أصبحت هذه الحجرة على السطح ملاذه ومأمنه هرع إليها هالعا من القاهرة فأمّنت خوفه وأقرت مضطربه ، واستراح بين ضلوعه قلب مفزع شديد الوجيب عاصف الضربات . ليس ينسى يوم فرغ إلى غرفته هذه فى ذلك اليوم المشؤوم من أيامه الأولى فى القاهرة ، يوم نزل مزهوا بجبته وقفطانه وحذائه اللامع يتبختر فى الشوارع يزين لنفسه أن يتفرج على القاهرة ، معتقدا أن الأعين فيها جميعا سوف ترمقه بالإجلال والإكبار . وسار على غير هدى ، وراح يتلفت حواله أينما سار محاولا ما وسعه الجهد أن يرى أثر قفطانه وعمامته الزاهية على من يمر بهم من الناس ، حذرا كل الحذر أن تحدر هذه الدمعة التى لا تترك عينه ، فهو يسمح خده سواء لديه كانت الدمعة منحدره أو كان مكانها جافا لا أثر للدمع فيه . وتعود إليه نظراته توهمه أن العيون تتبعه وإن كان هو فى بعيد نفسه يعلم أن ما تلقىه إليه نظراته وهم لا يتصل بسبب إلى الحقيقة .

فالناس منصرفون عنه إلى ما يشغلهم من حديث أو عمل أو هو ، ولكنه مع ذلك يجب أن يصدق أوهامه أكثر مما يجب أن يصدق الحقيقة التي يعلمها ، فهو وقور في مشيته بطيئة خطواته قليلة حركاته إلا تلك اليد يمسح بها من حين إلى آخر دمعته الحقيقية أو الموهومة لا يدرى ، وإنما هي يده يرفعها بين الفينة والفينة حتى لا تصيب الدمعة شيئا من وقاره أو أنافته .

وظل سائرا يتهدى به شارع إلى حارة ، أو حارة إلى زقاق ، حتى انتهى به المطاف إلى أصوات عالية أوضح ما فيها أيمان مغلظة تتراوح بين أيمان الطلاق والقسم بالله ثلاثا ، وراح يقترّب من الأصوات لأن طريقه يحتم عليه أن يقترّب منها حتى أصبح في مركز الدوامه من الصراخ المرتفع .

- وأنت من أدراك بكلام الله .. يارجل دع العلم لأهله .. أنا لم أرك في يوم من الأيام تلبس العمامة .. إلا إذا كان ذلك قبل أن أعرفك .. أى قبل أن تولد .

- يارجل .. يا رجل اتق الله .. زوجتى طالق يا شيخ إن لم تكن هذه الآية من كلام الله .

- تعنى أنها من القرآن .

- فى القرآن .

- زوجتى طالق ثلاثا إن كانت فى القرآن أو كانت تعرفه أو شافته ..

الرجلان على جانبي الطريق .. أحدهما على باب دكان حوله رهط من الأصدقاء ، والآخر على المقهى فى الجهة المقابلة يحيط به هو الآخر رهط من المعجبين . وكلا الرجلين يريد أن يكون ذا علم وحسين يمر بينهما وتختطف أذنه هذا النقاش فيسير طريقه واثقا أن الجماعة ستشغل بنقاشها عن قفطانه وعمامته ، ويعبر حسين المقهى والدكان ويوشك أن يتعد ، ولكن الصراخ ينقطع بشكل مفاجئ فلا يسمع حسين إلا كلمة واحدة .

- ٨٢ -

- نسأله .

ويعقبها صوت يصبح أصواتا :

-يا أستاذ .

ويعمضى حسين سبيله ولكن الأصوات تتعالى :

- يا سيدنا .. يا سى الشيخ .

ويقف حسين ويلتفت وفي عينيه سؤال يريد أن يتأكد به أنه هو المقصود ،
وتتعالى الأصوات مرة أخرى :

- نعم أنت .. تسمح لحظة .

ويتجه حسين إلى الجمع ، ويبادره الرجل الجالس إلى المقهى :

- نريدك فى سؤال .

ويفرح حسين فقد وافته الفرصة مبكرة أن يصبح أهل إفتاء ، فيجلس
القرفصاء معتمدا قدميه دون أن يلامس جسمه الأرض ، موليا وجهه إلى أهل
المقهى وظهره إلى أهل الدكان وقال وقد تمكن من جلسته :

- نعم .

- هل فى القرآن : وإذا الصحف تطايرت وانتشرت .

ويقول حسين فى وقار وثقة :

- لا .. إنما يقول سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز « وإذا الصحف نشرت ،

وإذا السماء » .

ولا يكمل الآية ، وإنما هى ركلة فى ظهره ترفعه إلى أعلى قليلاً ثم تهوى
به على الأرض منكفياً على وجهه ، عمامته نافرة عن رأسه وصوت يطن فى
أذنه :

- ألم يبق إلا العيال نسأهم فى كلام الله .. وأنت ماذا تفهم فى كلام الله

يا ابن .. يا ضائع .. قم .. قم خيبة الله عليك وعلى أبيك .

ويغرق الجانبان فى الضحك لمنظر حسين وعمامته ، ويقفز حسين إلى عمامته حيث هى وينفجر باكياً ، وينتهز مكاناً خالياً وينفلت منه وقد علا بكأؤه تملأ نفسه الحسرة ويروح يعدو ، وقد أحست نفسه الظلم مريراً خائفاً يزيده الرعب مرارة وحنقاً ، لا يجد متنفساً منه إلا الدموع والنشيج .

وراح يعدو لا يدرى إلى أين ، وانغلقت عليه المسالك فأصبح لا يدرى كيف يصل إلى حجرته ، فيقف وينظر إلى حاله ، وينظر إلى خلفه حتى إذا استيقن أنه غير متبوع راح يتحسس طريقه إلى الحجرة حتى بلغها ، وحين دخلها عاوده الأمن وإن لم تفارق نفسه المرارة .. احتضنته الغرفة ذلك اليوم ووجد فيها مأمناً ووجد فيها أيضاً .. هذه القطة التى عرفها أول ما عرفها فى ذلك اليوم ، وكأنما جاءت له ليشتكى إليها ما وقع له ، ولتشتكى هى إليه الجوع والتسكع ، كان هو وحيداً بغرفته ، وكانت هى وحيدة بجوعها ، والتقى الاثنان وبدأت بينهما فى ذلك اليوم صداقة لا تزال مشدودة الأواصر حتى يومه هذا .. لا ... لا ينسى حسين كيف كانت هذه الغرفة مأمناً من الفزع وكيف صارت القطة أليساً له من الوحدة .. وليس ينساها أيضاً فيما وقع له بعد ذلك من ظلم .

كان ذلك بعد إقامته فى القاهرة ببضعة أشهر ، وكان الأزهر قد أتاح له بعض صداقات . وكان أقرب الأصدقاء إليه فتى من القرية المجاورة لقريته سبقه إلى القاهرة بسنة واستطاع أن يجد عنده ما يجب من حديث عن أماكن وأشخاص يعرفها كلاهما ، هذا الحديث الذى يذيب الوحشة ويشير الحنين ويشعر الإنسان بدفء الحياة فى ظلال بلدته وعلى وديانها وحقولها ، وتحت النخيلات هناك وعلى ضفاف النهرات ، وذلك الحديث الذى لا يجده حسين فى القاهرة إلا حين يلم به الحاج والى وقليلاً ما يفعل - ثم هو لا يستطيع أن يفرض معه فى الحديث إفاضة الصديق إلى صديق ، وإنما هى أسئلة

يمنعها الإجلال أن تكثر ، ويعوقها الخجل أن تصل إلى التفاصيل . أما حين يتحدث حسين إلى صديقه حمدي فالذكريات المشتركة والأماكن التي يعرفها كلاهما والأشخاص الذين تربطهم بهما صلات الملعب والكتاب . فقد كان كتاب القرينين واحداً . وهكذا توطدت الصداقة بين حسين وحمدي ، وأصبح حمدي مرشداً لحسين في القاهرة . وصار حسين يبتعد عن حى الدراسة مطمئناً إلى خبرة حمدي ومعرفته بالطرق ، فهو يزور أحياء القاهرة معتمداً في السير على رجليه ، وفي معرفة الطريق على حمدي . حتى كان يوم زارا فيه حديقة الحيوانات وأتما زيارتها وأرادا العودة ، وكان التعب أخذ منهما أخذاً وببلا فقد قضيا يومهما جميعه سائرين وقال حسين :

- نركب الترام .

- نركبه .. لكن اسمع .. أتريد أن نركب أم تريد أن أجعلك تنزه نزهة أخرى .

- أنا متعب .

- إنها نزهة مريحة .

- كيف ؟

- نركب سلم الترام بدلا من الترام نفسه ، فنكسب مكسين ، الأول أننا سنكون خارج الترام لننتفج على الشوارع التي سنمر بها فرجة لا نستطيعها من داخل الترام ، أما المكسب الثاني هو أننا لن ندفع شيئاً .

- لا بأس .

وكان حسين قد تعلم منذ حادثته الأولى ألا يخرج بعد الظهر بملابس الأزهر فهو ليس طاقية ومركوبا وجلبابا . وكان حمدي يرتدى مثل هذه الملابس أيضاً . وبدأ الاثنان المغامرة ولكن لم يكادا فقد ركبا أول ما ركبا تراماً ذا سائق لا يحب هذه العادة من الفتيان ، فما كاد الاثنان يقفان على

- ٨٥ -

السلم حتى وجد حسين طاقيته تختطف عن رأسه ، وقبل أن ينظر إلى من اختطفها كانت طاقية حمدي تلحق بطاقيته . ونظر فإذا السائق يضع الطاقيتين على المقبض الذى يمسك به ليتحكم فى التزام وهو يقول :
- حتى لا تركبا مجاناً مرة أخرى يا أولاد الكلب .

وراح حسين وحمدي يستعطفانه ولكن الرجل ظل صامتاً وكأنه فقد النطق، حتى إذا بلغا المنعأة شديدة أمال السائق التزام بعنف ، فإذا حسين وحمدي على الأرض . وقام كلاهما يجرى ولم يكن التزام فى سرعته الكاملة فهما يعدوان بجانبه يستعطفان السائق أن يرد إليهما الطاقيتين ولا يجيب . ويخشيان أن يثبا مرة أخرى إلى السلم أن يضربهما الرجل الصارم . وزاد التزام من سرعته وزاد الاثنان من سرعة عدوهما وينقلت المركوب من رجل حسين ، ويستقر على شريط التزام وتمر عليه العجلات الحديدية فإذا هو نصفين ، ويقف حسين ويضطر حمدي للوقوف . كانت المصيبة واحدة فصارت مصيبتين ، والطاقية مهما تكن من الوبر غالية إلا أنها على أية حال أرخص من المركوب . ويمسك حسين ببقايا المركوب بين يديه والتزام يبتعد عنهما بالطاقيتين ، وينظر حسين إلى حمدي :

- أرايت شورتك .. نتفرج ولا لدفع !

ويضع حسين فردة المركوب تحت إبطه ، ويمسك بالمركوب الآخر الممزق ويقطع الطريق حافياً ، حريصاً أن يميل إلى كل محل أحذية يلاقيه كبيراً كان أو صغيراً . يسأل الواقف به سؤالين :

- أيمكن إصلاح هذا ؟

- لا ؟

- أيمكن أن تبيع لى فردة واحدة .

- ٨٦ -

وقد يجيب المستول بلا ساخراً ، أو يجيب بطرده هو وصاحبه فى صلف وكبرياء .

ويصل حسين إلى غرفته ، ويقفل الباب ويرتمى إلى فراشه ويكى .. وتثب القطة إلى جانبه فيمد إليها يده بغير وعى ويمسح على ظهرها وتنحدر الدموع من عينيه .

كانت الحجرة فى ذلك اليوم ملاذاً فى بؤسه وشقائه .. فهو إذن لا يريد أن يتركها فقد ألفها وألفته .

وألف أيضاً أهل البيت . فإن زوجة صاحب البيت وهى شابة فى ريق العمر كثيراً ما تلقى إليه نظرات فيها عطف وفيها انتظار لشيء لم يكن حسين يدرك ماذا تنتظر ، ولكنه كان يحس أن هناك شيئاً تنتظره هذه الفتاة .. ولكن الأيام فى مرورها البطيء جعلته يعرف أن هناك ما تنتظره امرأة من رجل وما ينتظره رجل من امرأة . حين بلغ اليوم الذى يعرف فيه هذا الشيء كان يقول كلما تذكر الست مفيدة أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . أعوذ بالله من الشيطان الرجيم .

(١٦)

مر وقت طويل على الحاج والى لم يزر الزقازيق ، فانتهاز فرصة وجود بعض غلال عنده يريد أن يبيعها فأخذ أهيته لزيارة البندر وسأل الحاجة بمبة إن كانت تريد شيئاً ؟ فذكرت له ما تحتاج إليه ولم يكن ما تحتاج إليه كثيراً ، وأخذ الحاج والى طريقه إلى البندر راكبا عربته الحنطور التى كان قد طلب إلى سائقها أن يعود إليه بعد أن يذهب بمحمد إلى المدرسة .

وفى الزقازيق لم يجد تاجر الغلال الذى تعود أن يعامله فراح يشتري ما طلبته بمبة ، حتى إذا انتهى من الشراء مال إلى المقهى الذى يجلس إليه كلما ألم بالبندر ، وفجأة تذكر أنه منذ زمن بعيد لم يزر محمداً فى المدرسة ليعرف كيف يسير فى الدروس .

فانتهاز الفرصة وقام إلى المدرسة .

وكأنما كان الناظر ينتظر :

— كنت سأكتب إليك الآن .

— خيراً .

— المدرسون يشكون من محمد .

— لماذا ؟

— لا يريد أن يكتب فى الفصل ويهمل واجباته ..

وصمت الحاج والى قليلاً .. أهكذا تنتهى آماله ؟ أهذا ما كان يصبو

إليه ؟! أيربى طفلاً ليس ابنه فيتجه من التعليم وجهة لم يكن يبتغيها .. وحين

يريد أن يربى ابنه هو الوحيد يعزف عن التعليم جميعاً ؟ ويلتفت إلى الناظر —

وفى قلبه هم ثقيل كأنما هو أمام طبيب يعلنه بنهاية الحياة ..

- ٨٨ -

- ماذا أفعل ؟
- أترك ليئا معه ؟
- لا أدري .. فأنا لا أؤخر له مطلباً ..
- لعلك لو اشتددت عليه بعض الشيء ..
- بل أريد أن أشتد عليه كل الشدة .. إنه ابني الوحيد يا حضرة الناظر ..
- أعرف ..
- وليس لي أمل في الحياة إلا أن يتعلم ..
- أعرف .
- ماذا لو ضربته الآن أمام إخوانه ؟
- عقاب شديد لا أريد أن تلجأ إليه إلا عند الضرورة القصوى .
- إذن ..
- عقاباً أهون من هذا ..
- حسن .. سيسير محمد في دراسته على أحسن وجه ..
- وسأجىء إليك كل أسبوع لأؤكد من ذلك بنفسى .. وأشكرك يا حضرة الناظر ..
- وخرج الحاج والى عائداً إلى المقهى ، وانتظر حتى موعد خروج محمد وركب العربى وانتظر مع المنتظرين . وخرج محمد وفوجىء بأبيه فى العربى ..
- سلام عليكم يا آبا ..
- اركب .
- وركب محمد وسارت العربى ، ولم ينبس الحاج والى بكلمة وظل محمد صامتا حائراً وقد داخل نفسه هلح لا يدرى مأتاه ، فما هكذا عوده أبوه ..
- كان يتحرق شوقاً لا يدرى ما يعتمل بنفس أبيه ...
- ولكن أنى له هذا وهو لا يستطيع أن يفتح حديثاً يغلُق أبوه أبوابه .. !

- ٨٩ -

وصار الطريق الذى يقطعه محمد مرتين كل يوم دون أن يحس طوله ،
طويلاً لا ينتهى ، فقد كان محمد يحدث السائق فى أثناء الركوب أما الآن
فهو فى صمت مطبق لا يشغله إلا صوت العجلات وحواضر الخيل والخوف
الراعد الذى يملأ قلبه .. وأحس الحاج والى بالخير التى يعانيتها ابنه .. ولكن
أين هى مما يشغل قلبه من حزن وألم ؟!

ووقفت العربى أمام البيت ، وقفز محمد يريد أن يتعد عن نفس أبيه هذه
الغاضبة .. ولكن أباه عاجله :
- انتظر .

وكأنما كانت الكلمة حبلاً يمسك بالطفل الصغير فهو يقف مكانه
متسمراً ، ويهبط الحاج والى من العربى ولا يقول إلا كلمة واحدة :
- تعال ..

ويدخل محمد وراء أبيه ويجدان الحاجة بمبة فى بهو البيت ، فيلقى عليها
الحاج تحية سريعة ويدخل إلى الحجرة وهو يقول لـمحمد :
- تعال ..

وينظر محمد إلى الحاجة وتنظر إليه وتقول :
- انت عملت حاجة ؟

وقبل أن يجيب محمد يعلو صوت الحاج والى مرة أخرى فى غضب :
- تعال ..

ويدخل محمد إلى الغرفة ، وتهتم الحاجة أن تلحق به ولكن الحاج والى
يردها فى شئ من اللين ..
- انتظرى قليلاً أنت يا حاجة ..

وترجع الحاجة إلى مكانها من البهو ، ويغلق الحاج باب الغرفة بالمفتاح :
- لماذا لا تكتب فى الفصل ؟

- ٩٠ -

ويصمت محمد .. لقد عرف الآن السر فى غضب أبيه ولكن لات حين
معرفة .. ويصرخ أبوه فى وجهه :
- انطق .

ويرتعد محمد من هول الموقف ، ويعود أبوه يسأله :
- ولماذا تهمل فى واجباتك ؟

ولم ينتظر الحاج والى بل إن يده كانت أسرع من إجابة محمد وانها على
الطفل ضربا ، والطفل باهت أمام أبيه تدور عيناه فى محجريهما ، ويحس شيئا
ساخنا ييل فخذيه .. ثم تنفجر عيناه بالبكاء والأب يضرب حتى أصبح لا
يريد أن يقف .. ويصرخ ..

- ماذا .. أجنون أنت .. ليس لى إلا ابن واحد ويريد أن يصبح ضائعا
تافها .

ويضرب ... والفتى يحيط وجهه بذراعيه .. والأب يضرب لا يدري أين
مواقع ضربه !! ويضرب .. والطفل يبكى ، حتى صرخ الطفل أخيرا بصوت
علا على صوت أبيه :
- كفى يا آبا .. كفى ..

وكأنما كانت كلمات الطفل القليلة يدا سلطت على قلب الحاج والى
فاعتصرته اعتصارا .. كانت كلمات بسيطة قليلة ليس فيها اعتذار ولا طلب
مغفرة ، ولكنها هزت كيانه كله حتى أوشكت الدموع تطفر من عينيه ..
كفى يا آبا كفى .. لم يقل غيرها .. فما له قد زلزل زلزالا ، وما له قد كف
يده وكأنما قبضت عليها يد أخرى قدت من حديد !! وتنبه إلى طرق زوجته
على الباب ففتح لها ، ولم تسأله وإنما أحاطت الطفل بخنانها وأخذته وخرجت
من الغرفة ..

- ٩١ -

وظل الحاج والى وحيدا .. ألهذا كنا نأتى بهم .. لعذابهم وعذابنا ؟ ومرة أخرى عاد الضباب يغطي ناظره ، إلا أنه فى هذه المرة كان ضبابا أكثر كثافة من كل مرة .. وأخرج الحاج والى مسبحته وراح يسبح ..
- لا حول ولا قوة إلا بالله .. سبحان الله والحمد لله ، ولا إله إلا الله .

(١٧)

لم تكذب بهية تستقر فى بيت أبيها حتى سارعت إلى التليفون تطلب صديقة الطفولة نعيمة . فقد طالت بينهما الغيبة فهى إليها مشوقة تريد أن تسمع من أخبارها الكثير الذى تجمع فى هذه الفترة المتطاوله التى لم تزر فيها القاهرة . وكأنما كانت نعيمة معها على موعد .. فإن عامل التليفون لم يكذب يدق لها جرس تليفونها حتى رفعت السماعة واتصل صوت الصديقتين .
وما كان التليفون إلا وسيلة لتتم الزيارة ، فما أن انتهى الغداء حتى كانت نعيمة فى بيت زكى بك الناضورجى مصطحبة معها ابنتها ناهد .. أما الأم فسيده فى ريق العمر عدا السمن على جسمها فهو مترهل ، ولم تعد السنون على وجهها فهو ناضر ، ذات شعر أسود ، وثغر يحتفظ لنفسه من الحياة بابتسامة كثيرا ما تصبح ضحكة رنانة تصدر عن قلب يهفو إلى السعادة تخلصت من كل تفكير أو هم ، لها عينان تشقان طريقهما فى الحياة بشعاع من الهناء المترعة والسعادة الغامرة ، فيهما تطلع إلى ما يجتلب إليها السرور والمتعة ، وفيهما قدرة أن يتجنبها كل ما من شأنه أن يزيل الابتسامة عن الفم والسعادة عن القلب .

أما ابنتها فطفلة لم تزد على عمر آمال .. إلا أنها أكثر منها حركة وحياة، ورثت عن أمها الشعر الأسود والابتسامة ، وقد يرد أمها عما تصبو إليه

- ٩٢ -

بعض خجل أو حياء ، أو قد يردها عمر ليس بالطفل .. أما الابنة فلا شيء يردها فهي تفعل ما تريد وقتما تريد .

جلست الأمان وسرعان ما بدأ الحديث بطيئا وانيا أول الأمر ، ولكن ما هي إلا لحظات حتى تفجر الينبوع وتشابك الحديث كأنه غابة من الكلمات المتدافعة ، حتى أصبحت كل منهما وهي لا تدري إن كانت صاحبها تسمع أو لا تسمع ، وإنما كل ما تعنيان به أن تتحدثا .

ولم تستطع لاهد أن تصبر طويلا على حديث الأمان ، فما أسرع ما تمت الصداقة بينها وبين آمال ، وما أسرع ما انسحبتا من الغرفة لتخلوا إلى حديثهما هما أيضا .

- ماذا تعملين في المدرسة ؟

وتجيب آمال :

- أنا لا أذهب إلى المدرسة ..

- ياه ، وماذا تعملين ؟

- ألعب مع محمد أمام بيتنا - هناك في البلد .. هل عندكم بلد مثلنا ؟

- لا .. ولكني أذهب إلى المدرسة ، وفي البيت نغني ونرقص .

- أنا أتعلم في البيت ، وبعد الظهر ألعب بالكرة ..

- تجيء عندنا الست عطيات .. المغنية المعروفة .. مشهورة جدا ..

أتعرفينها ؟

- لا .. أنا أذهب إلى الغيط وأركب النورج .. هل عندكم نورج ؟

- لا .. أنا أرقص وأغني مثل الست عطيات ، أترقصين ؟

- أنا .. أبدا .

- يا خسارة !! سأعلمك الرقص .

- وأنا سأعلمك ركوب النورج وأجعلك تضربين البقر الذي يجر النورج.

- ٩٣ -

- عندما ترقصين تصفق لك أملك وأبوك والزوار ..
- عندنا إسماعيل أبو شعبان .. أخذنى لأتفرج عليه وهو يدير الطمبور ..
- أتعرفين الطمبور ؟
- الست عطيات أحسن واحدة تدق الصاجات ..
- كان إسماعيل أبو شعبان يلف الطمبور وهو عارى الساقين فيخرج الطمبور ماء .
- الماء عندنا فى الحنفية .
- وفى الصيف كنت أقف بجانب الغلة وهم يذرونها فى الهواء فتطير ، ثم يسقط الحب وحده والتبن وحده ..
- نحن فى الصيف نصعد إلى سطح البيت وتغنى الست عطيات وترقص ، وكنت أرقص معها .. ويقول أبى إننى أرقص أحسن منها ، ولكن أمى تقول إنها أحسن من يمسك صاجات فى مصر ..
- وقالت الست بهية لصديقتها نعيمة :
- وناهد هل تذهب إلى المدرسة ؟ ..
- نعم .
- ما اسم مدرستها ؟ ..
- والله لا أدرى .. أبوها هو الذى أدخلها .
- ألا تعرفين مدرسة ابنتك ؟
- وأنا مالى !!
- كيف ؟
- يا أختى بلا هم .. وماذا ستعمل بالعلم ؟ .. مصيرها تتزوج .. أحسن لها أن تتعلم كيف ترضى زوجها ..
- وتضحك بهية ضحكة مجلجلة وتقول :

- ٩٤ -

- وهل تعلمت هذا ؟
- ترقص على كيفك ..
- وتقول بهية وبقية الضحكة ما زالت عالقة على شفيتها فى شكل ابتسامة:
- ولكنى أريد أن أدخل آمال المدرسة .
- أسأل لك عبد السميع عن مدرسة ناهد ..
- وأخبرينى غدا بالتليفون .. قولى لى .. كيف حالك مع زوجك ؟ أما
- زال ميسوطا من ضحكك وهوك ؟؟
- الرجال أطفال .. الضحكة تجعلهم كالخراف يفعلون ما تشائين .. لا
- يؤخر لى طلبا .. طلبت منه أن يشتري جهاز ناهد من الآن فاشترى ..
- وما الداعى ؟
- ألا تعلمين أنه كان متزوجا أخرى وله منها أولاد ؟ وأنا ليس لى منه إلا
- ناهد .. إن لم أحصل على كل ما أستطيع منه فى حياته ضعت بعده ..
- أنت لئيمة ولا يبين عليك ..
- لا يا حبيبتى .. الضحك شىء والجد شىء .. جعلته يبيع أرضا لى
- وسجلها فى المحكمة .. لا .. كل إنسان يجب أن يبحث عن مصلحته ..
- وهو يطيع دائما ؟
- ضحكة هنا ، ورقصة هناك ، وليلة أنس يتم ما أريد ، وأنت ماذا
- تفعلن ؟
- أنا زوجى ليس له إلا آمال ، ولا أعرف شيئا عن أحواله إلا أنه رجل
- طيب ويفعل ما أريد ..
- وهل يحب آمال ؟
- يعبدها ..
- وهل تضحك عليه مثل ناهد ..؟
- آمال .. أبدا .

- ٩٥ -

- لا .. ناهد تعرف كيف تضحك على أبيها ، إن شافته وهو زعلان
مكشتر تهمس فى أذنى وتضع الحزام حول وسطها ، وأطل أنا وترقص هى
فإذا تكشير أبيها ضحك والبساط .. انتظرى حتى أجعلها ترقص لك ..
- انتظرى أنت حتى أنادى زين العابدين وبابا ونينا لينفرجوا عليها ..
- وأنا كيف أقابلهم ؟..

وسكتت بهية لحظة فقالت نعيمة :

- أطل لها من هنا وهى ترقص فى البهو..
وتجمعت العائلة ، وأمرت الأم ابنتها أن ترقص ولم تعترض الابنة أو تدعى
الخنجل .. كأنما هى راقصة محترفة تنتظر موعدا لتحبى الليلة ، وبدأ الرقص
وراحت ناهد تتمايل فى ألوانة محترفة ، وظهر العجب على وجه زين العابدين
وقطب زكى بك بعض الشيء ، وارتسمت ضحكة طيبة على وجه ازدهار
وفرحة ساذجة على وجه بهية . وفجأة مالت ناهد برأسها إلى الخلف حتى
كاد رأسها يلامس الأرض ، وفى غمرة الدهش صفق زين العابدين تصفيقا
حارًا فهو لم يتوقع أن يرى من الطفلة الصغيرة ما يراه فى الكباريه ، ودون
وعى تقدمت آمال إلى المسرح وراحت تهز نفسها مثلما تفعل صديقتها
الجديدة ، وقال زكى بك دون وعى :

- بنت !!

ولكن البنت لم تسمع ، وخنجل زكى بك أن يصير على منعها خشية أن
يمس هذا إحساس نعيمة صديقة ابنته ، واندجت آمال فى الرقص مع ناهد ،
وراح زين العابدين يصفق تصفيق الخبير محترف الكباريه ، وراحت امرأته
وحماته تقلدانه فى تخرج ما لبث أن أصبح حماسه .. بينما تصاعد الدم الأحمر
القانى إلى وجه زكى بك ، فغمر وجهه وصعد إلى رأسه حتى أصبحت القطعة
الصلعاء التى تغافل الطربوش وتبرز للعيان من الخلف فى لون الطربوش ذاته.

(١٨)

إن له لنغمة حلوة قريبة إلى النفس يصبو إليها القلب في تجاوب خفاق ،
عذب هو لا تملك الأذن إذا سمعته إلا أن تميل إليه في حين يملك على
الإنسان مشاعره جميعا ، فكأنما الدنيا لم تخلق إلا لسمع الإنسان فيها الشعر .
يقولون إن للخمر نشوة فما نشوتها إذا قيست بنغمة الشعر الجميل الجرس
الحلو الأرائين ؟ فالقلب حين يصفى إليه وجيب ، والعين دمعة حائرة تنطلق
عن السعادة غامرة وهناءة تتماوج في النفس جميعا .

هكذا أحب حسين الشعر .. فحياته منذ أحبه شعر .. وليس غير الشعر ..
يستعير الدواوين من مظانها جميعا ، ويحفظ العروض فيجيد حفظه ، ويحفظ
المنظومات الأزهرية جميعا في سهولة ويسر .. ويجب شواهد النحو التي يضيق
بها إخوانه من الأزهرين ، شعر ، أصبحت آفاق حياته كلها شعرا ، ولكن
آماله في أن يصبح شيخا للوعظ لم تبح نفسه .. فهذا أمل راسخ في بعيد
نفسه ليس له عنه حول ولا منصرف .. آمال الصبا الباكر والطفولة الحاملة ،
الجنة والقفطان والعمامة والنساء والرجال وهنية ، وخاصة هنية ، يقبلون
يده ، ومن يدرى فقد يأتي يوم يقبلون فيه طرف الجبة .. الخضراء ، أو غير
الخضراء .. وإن كان لا بأس بالخضراء . وأقول شعرا . شعرا في الصوفية ..
في حب الله .. فإنه لا يجوز لشيخ مثلي أن يقول في غير حب الله .. ولكنه
شعر جميل يستثير مكامن الدموع ، ويداعب خوافي الأشجان ويجعل النفس
تثوب إلى الإيمان من حب الله والتفاني في ذاته العليا سبحانه . وكانت يد
الشيخ اليمنى تداعب قطته وهو مستلق على السرير تاركا لآماله الحرية أن
تفعل به ما تشاء .. وانتبه الشيخ إلى نفسه وإلى يده تداعب فرو القطة
الناعم ، ويده الأخرى تمسح دمعة عن عينه . وحيد ليس لي إلا القطة ، ألم
تصدف عن صاحبة البيت . لكم عرضت عليك أن تنظف لك الحجرة أو

تغسل لك الملابس ولكنك أبيت في إصرار . بل إنك حتى رددت الطعام الذى أرسلته إليك مع الخادمة الصغيرة .. أستغفر الله العظيم .. أستغفر الله العظيم .. ولكنى وحيد .. أتصلح هذه الكلمة بداية قصيدة ؟ .. أو تكون مثل هذه القصيدة صالحة للتصوف .. لا بأس أن أقول فى الحب العفيف أو فى المشاعر الإنسانية البعيدة عن الدنس والعياذ بالله .. فالوحدة موضوع لا بأس به .. أترأى لو كتبت القصيدة تمتدح الوحدة ؟ أم تراك تقول ما تجده فيها من يؤس وضياح .. ما هى إلا سنوات قليلة .. نعم .. نعم تصبر نفسك، إنما هى سنوات قلائل وتصبح وحدتك شملا مجتمعا .. أنت وهنية .. نعم إنك تريد لها زوجة .. هنية .. تلك البنت .. الفتاة التى تريد أن تقبل يدك أو طرف جبتك .. نعم فإنه لا رهبانية فى الإسلام .. أريد أن أحترف الوعظ وأتزوج وأحب البنين والبنات .. وأعوض نفسى عن الوحدة الطويلة التى عانيت بها .. طويلة .. طويلة هى الوحدة .. القطة .. الوقت المتشاب .. رائحة الركود . الزمن المتجمد .. الضياح فى طوفان الفراغ .. دوامة الضمت .. لا حس إلا تسبيح القطة ، لا رائحة إلا أنفاسها كأنها أنفاس الملل والضيق والضياح .. لا عمل إلا الانتظار لجهول وذكريات من الماضى أضيق بها من كثرة ما تذكرتها ، وآمال فى المستقبل أكاد أزهد بها لهذا الزمن الطويل الذى يفصل بينى وبينها .. مروعة هذه الوحدة .. لا .. لا شئ يصفها إلا نفسها .. الوحدة .. الانسلاخ عن البشرية المتماوجة حولك .. البعد عن دوامة الحياة، العزلة كأنك عمل سىء . القطة وأنا . وفجأة وجد القطة تضطرب تحت يده وتقفز فتتهوى يده إلى السرير ويجتذب نظره عن الحائط الذى أطل إليه النظر يريد أن ينظر إلى مكان القطة فيجد جسم إنسان .. امرأة .. إنها مفيدة زوجة صاحب البيت .. وينظر إلى الباب فيجده قد أقفل وإلى القطة فيجدها

- ٩٨ -

متعبة عند الباب تنظر إليه وكأنما تنتظر ما هو فاعل ، ويعود إلى المرأة ثم
يثوب إلى نفسه ، ثم ينتفض من مكانه ، يريد أن يقوم وهو يقول « أهلا » .
ذاهلة دهشة خائفة ، وقبل أن يقوم تدفعه يد المرأة في جراحة .

- نعم .

ويرتقى مكانه ..

- لماذا ؟

- إلام تظل خائبا ؟

- نعم .

- يا رجل اصح من نومك .. أصبحت رجلا .

- نعم .

وأطبقت بشفتيها على شفتيه ، والتهبت حواسه ، وحين أخلت سبيل فمه
وجدته ووجد نفسه يقول :

- حرام .

فأطبقت على شفتيه مرة أخرى وحين تركته قال مرة أخرى .

- حرام .

ونامت المرأة إلى جانبه ، وهو لا يتوقف عن القول :

- حرام .. حرام .. حرام .

* * *

أقام صلاة الفجر حاضرة ثم تناول إفطاره وراح يذاكر بعض الحين ثم
لبس ملابسه ومد يده ليتناول العمامة ، فأحس يده كأنها تريد أن ترتد عن
العمامة دون أن تأخذها ، حتى إذا استجمع قواه اختطف العمامة إلى رأسه
فأحس كأنها أطواق من حديد تضغط على رأسه حتى ليكاد رأسه ينفجر .

ليست هذه هي العمامة التي يعهدها ، لا ولا هي التي يتيه بها عجباً ، ماذا دهى العمامة ، ماذا ألم بها ؟ .

خلع ملابسه وعاد إلى الحمام مرة أخرى وراح يسكب مزيداً من الماء على جسمه . وانهمر الماء وانهمر حتى إذا خيل إلى حسين أنه يستطيع أن يلبس عمامته دون أن يضيق بها أو تضيق هي على رأسه ، خرج من تحت الماء وعاد إلى غرفته . وقبل أن يجفف الماء عن جسمه انفرج الباب عن مفيدة . ولم يلبس حسين العمامة ، لا ، ولا ذهب إلى الأزهر في يومه هذا .

لم تعد علوم الأزهر تعنيه وإنما كان يهتم بالشعر فيها فقط ، وهو منذ عرف مفيدة أشد انصرافاً عن العلوم الدينية . وكان يحس أنه غير متلائم مع ملابسه ولا مع المستقبل الذي يعد نفسه له . حتى لقد أخذ يتجه بآماله إلى آفاق أخرى غير الأفق الذي كان قد رصد له حياته .

ولكنه مع ذلك مضطر أن يظل على عهدته من لبس الجبة والقفطان والعمامة ، وإن كان في داخل نفسه يخلع العمامة والجبة والقفطان . لم يعد يعنيه أن يقول شعراً في الصوفية وإنما أصبح يعنيه أن يقول شعراً أى شعر .. فهو يقرأ .. ويقرأ .. وطاب له العيش مع مفيدة ومع آماله العريضة أن يصبح شاعراً . ولكن هاجسا ما يلبث أن يهجم في نفسه .. ماذا يفعل به الحاج والى .. إن هو اتجه إلى الشعر ولم يتجه إلى ما أرادته لنفسه من تعليم ديني ؟ .. وماذا يمكن أن يفعل الحاج والى .. بل ماذا يمكن أن أفعل أنا إذا غضب على الحاج والى ؟ .. ضائع أنا شريد .. ألتمس الرزق من غير أبى .. بل من رجل لا تربطني به صلة إلا الفضل منه والفقر مني ، ورغبته أن يفتخر أمام الناس أنه يغدق على عطفه ، ورغبتي أنا في أن أعلم ، وإن بدلت في سبيل ذلك كرامتي وماء وجهي .

- ١٠٠ -

وليس لى اليوم محيد عن التعليم الذى أخذته لنفسى وإلا فأين أولى وجهتى من العلم .. لات حين .. لابد أن أكمل تعليمى حتى أجد ما أقتات به وليفعل بى الحاج والى بعد ذلك ما يشاء ، إنما بينى وبينه أن أنال شهادة .. أى شهادة .. لا . لا حاجة بى أن تكون شهادة العالمية .. فماذا يمكن أن تكون إن لم تكن العالمية .. وتدخل مفيدة وينقطع حسين عن التفكير .

(١٩)

فرغ الحاج والى من صلاة العصر وتريع على السجادة ، وراح يتمتم على مسبحته ، وكان ابنه محمد جالسا أمامه ، وراح الحاج ينظر إلى ابنه بينما كان محمد مشغولا بالمذاكرة . وأحس محمد نظرات أبيه فالتفت إليه ، والتقت ابتسامتان لا معنى لهما . وأطال الأب النظر إلى ابنه ، وظل الابن رايبا إلى أبيه حتى انتبه أخيرا الحاج والى ونكس رأسه إلى السجادة .. أبحرمنى حتى من متعة النظر إليه ، ما ضر لو تظاهر بأنه غير منتبه إلى . وأتاح لى فرصة أطول من النظر إليه .. راحة وهدوء يشيعان فى نفسى إذا نظرت إليه لا أدرى لهما سببا .

وعاد محمد إلى المذاكرة ، إنه فى طريقه الآن إلى البكالوريا يتحسس طريقه إلى الشباب فى خطى متعثرة يحدها شوق عارم لجهول من الحياة . وعاد الأب ينظر إلى ابنه وفكر ، وما كان بحاجة إلى التفكير ..

كان قد أعد له المستقبل جميعا لم يغفل منه شيئا .. لا ، هو لا يريد أن يشق ضمير الغيب عن مستقبل ولده فهو يعلم هذا المستقبل ويعده فى أناة وثقة واطمئنان .

- ١٠١ -

وقد ترك الابن لأبيه زمام مستقبله يخط فيه ما شاء أن يخط ، ليس له من اعتراض عليه ، بل إنه حتى لا يفكر أن يكون ذا رأى فى مستقبله .

- كبرت يا محمد .

- أطال الله عمرك يا آبا .. البركة فيك .

- إذا نجحت هذا العام .

- سأنجح يا آبا .

- ستذهب إلى مصر .

- إن شاء الله .

- لقد اتفقنا على الكلية .

- الطب .

- ولكن هناك أشياء لم نتفق عليها .

- أنا تحت أمرك .

- امتحالك بعد أسبوع .

- نعم .

- عندما تنتهى من الامتحان تتكلم ..

وقام الحاج والى عن السجادة ودلف إلى حجرة نومه فوجد الحاجة بمبة مستلقية على الفراش غير نائمة :

- هل أنت نائمة يا حاجة ؟

- لا أبدا .

وجلس الحاج والى على الأريكة ، وثنى رجلا إلى جسمه وأخرى إلى

اهواء وقال :

- آن لك أن تفرحى بمحمد .

- ماذا ؟

- ٦٠٢ -

- ابنك يا حاجة بمبة ، وهل له أم غيرك ؟
- وكيف أفرح به ؟
- أريد أن أزوجه قبل أن يذهب إلى مصر .
- تزوجه وهو تلميذ ؟
- تلميذ في الطب ..
- أليس صغيرا ؟
- سيكون وحده في القاهرة .
- بل سيكون أخوه معه .
وصمت الشيخ قليلا ثم قال :
- تقصدين حسين ؟
- أليس أخاه ؟
- حسين مشغول يا حاجة .
- مشغول ؟!
- مشغول يا حاجة .
وصمت وانتظرت الحاجة أن يتكلم .. وأحس الضباب يتصاعد أمام عينيه
وقال :
- عرف أنى مريض فلم يهتم حتى أن يرسل خطابا ، وعرف أنك مريضة
ولم يسأل . وأنا أزوره لا أنقطع عن زيارته كلما ذهبت إلى القاهرة .
- كيف عرف ؟
- من حمدي .
وصمت ثم عاد يقول :
- لقد رفض حتى أن يأتي في الإجازة . ومع ذلك .. إيه .. إنما الأعمال
باليات .

- ١٠٣ -

- إنه ابنك يا حاج .
- لا يا حاجة .. لقد أردت أن يكون ابني ولكنه هو لا يريد .. النهاية ..
النهاية .
- هل قطعت عنه ما ترسله إليه كل شهر .
- وهل تعتقدين أنني أفعل مثل هذا يا حاجة ؟
- لا .
- المهم .. أريد أن أزوج محمدا .. ستكون له زوجة تعصمه من الزلل
وتخدمه ، فيتفرغ هو للمذاكرة .
- أتريديني أن أختار العروس ؟
- لقد اخترتها .. هنية بنت عبد الحميد الهراس .
- كبيرة يا حاج .
- وما البأس ؟ .. حتى تعرف كيف تعامله ، وأبوها رجل طيب .
- أمرك يا حاج .. أأكلهم أمها ؟
- على بركة الله .
- وكان محمد لا يزال يذاكر في البهو لا يفكر إلا فيما يقرؤه .

(٢٠)

انتهى اليوم الدراسى فى مدرسة البنات وزا ط الفصل بأحداث كثيرة احتبست مدة خمس وأربعين دقيقة ، وانفجرت تريد أن تخرج جميعا طفرة واحدة فهى أخلاط من الكلمات ومزق من الجمل . وفى وسط الفصل وقفت فتاتان فى بواكير الأنوثة الصاخبة ، فأما إحداهما فتلقى على ظهرها سبيكة من شعر أصفر صقيل ينتظم من الخلف ، ولكنك إن نظرت إليه من أمام وجدته نائرا فى عريضة حبيبة كموج البحر إن كان البحر من ذهب ، يموج حتى ينتهى إلى هذه الصغيرة فكأنه بحر يصب فى نهر ، وقد انسدت منه خصلات على جبهة الفتاة فتذكر ساحل البحر الذى لا تدرى إن كان مخضلا بالماء أو هو جاف ، خصلات كخيال من الوهم لا تدرى أهى منسدلة أم هى تجرى فى تيار الشعر الآخر متجهة إلى السبيكة . ترى الخصلة حيناً فإن أنعمت النظر لا تراها ، ثم تعود فتراها ، وهكذا استطاعت هذه الخصلة أن تجعل وجه آمال متجددا دائما لا تمل العين النظر إليه .

وهو مشرق كالصباح الوليد ذو عينين فيهما جراءة وفيهما شباب وفيهما خضرة حلوة يمازجها لون بنى ، حتى لا تكاد تدرى ما هو لونها الحقيقى . فأما أنفها فأفطس بعض الشيء ، يتبعه فم واسع فيه على سعته حزم وإقدام ، وهى ذات قوام حلو وإن كانت تميل إلى النحافة ، أوضح ما فى قوامها ثديان يشرئبان فى عريضة طاغية وفى أنوثة باكرة .

وأما الفتاة الأخرى فهى نحيفة أيضا ، وهى أيضا ذات أئداء عريضة لها رقبة طويلة بعض الشيء لكنها لا تغض من جمالها ، ولها وجه أسمر يميل إلى الطول وعينان حالمتان تبدوان ضيقتين ، فإن أنعمت فيهما النظر أحسست أن

- ١٠٥ -

صاحبتهما هي التي تضيق منهما كأنها تحقق النظر في شيء تحبه .. فنظرتهما دائما كأننا نقول لمن تلقى إليه لكم أحبك ، وهي ذات شعر أسود غير ثائر ولا هادئ أيضا ، وإنما هو شعر قوى صقيل متكاثر تمسك بأطرافه صغيرتان تأخذان سبيلهما على ظهر ناهد في غيظ أن تقيدهما الأشرطة وإن كانت من حرير .

وأتمت آمال وناهد جميع الكتب في حقيقتيهما وخرجتا لا تلتفت واحدة منهما إلى التلميذات الأخريات ، فقد كانتا تحسان عند انتهاء اليوم الدراسي أنهما ردتا إلى العالم الخلق بهما بعيدا عن الدراسة والتلميذات والمدرسات ، وكان هذا الشعور ينبت في صدر كل منهما دون اتفاق بينهما عليه ، أو على الأقل دون أن يتفقا عليه بلغة الكلام ، وراحتا تجتازان الردهة الطويلة التي تفصل حجرة الدراسة عن الفناء . ولم تأبه ناهد حتى أن تنظر إلى الفتاة التي اصطدمت بها فأوقعت منها حقيقتها ، وإنما مالت في كبر فالتقطت الحقيبة بينما كانت آمال قد سبقتها بخطوتين ، ولم تتعمد ناهد أن تسرع من خطاها ولا اهتمت آمال أن تتمهل ، ولكن سرعان ما سارتا جنباً إلى جنب مرة أخرى ، ومرت أمامها مدرسة فوقفت الخادم أجلسة في الردهة ، وفي عظمة رفعت لها آمال يدها وكأنها ترد تحيتها . وكانت ثلة من الفتيات تسير أمامها ، وجرت قطة من خلف آمال وناهد ودلفت من بين رجلي ناهد وقفزت إلى أرجل الفتيات ، ونظرت ناهد إلى أسفل ثم أرادت أن تواصل سيرها ، بينما راحت الفتيات يصرخن بين خائفة ومتظاهرة بالخوف ، وفي إهمال حالم عبرت ناهد وآمال ثلة الفتيات وواصلتا سيرهما إلى السلم وراحتا تنزلانه درجة درجة ، وأخيرا التفتت آمال إلى ناهد :

- أتظنين أنهم يأتون اليوم ؟

- طبعاً .

- ١٠٦ -

- وهل .. ؟

- سنرى .

واصلتا سيرهما حتى خرجتا من الباب دون أن تنظر واحدة منهما إلى البواب الكهل الذى حياهما فى ابتسامة ساذجة ، وسارت الفتاتان فى الطريق حتى إذا بلغتا شارعا جانبياً انحرفتا إليه ، ولم يطل بهما المسير حتى انحرفتا مرة أخرى إلى طريق آخر ، وقالت آمال وكأنها فوجئت :

- جاءوا .

وقالت ناهد فى عظمة مطمئنة :

- طبعاً .

- وماذا سنعمل ؟

- سنرى .

وسارتا وعبرتا السيارة المكشوفة التى كانت واقفة على جانب الطريق وبها شابان . فاما السيارة فأنيقة غاية الأناقة ذات خراطيم كبيرة من المعدن تخرج من مقدمتها وتوجه إلى أسفل فتكسيها عظمة وتفردا ، وقد كانت مقدمة السيارة طويلة والخراطيم كثيرة . وأما الشابان فقد كان أحدهما أسمر اللون نحيفا والآخر يميل إلى البياض قدر ميله إلى السمن وكان هو الذى يمسك بمقود السيارة . قد دأب الشابان أن ينتظرا آمال وناهد منذ ثلاثة أيام فى هذا الموعد : كما دأبا أن يسيرا خلفهما بالسيارة حتى تلتفت إليهما ناهد لتقول فى صوت هامس مثير :

- بيتنا هنا .

فيعود الشابان أدراجهما لينتظرا فى اليوم التالى ، ويسيرا ويسمعا النغمة الهامسة المثيرة ويعودا .

- ١٠٧ -

وسارت السيارة خلف آمال وناهد ، ولكن الشاب السمين سبق الفتاتين وأوقف السيارة ونزل منها واعترض الطريق ، وهمست آمال لناهد :

— ماذا سنعمل ؟

ولم تجب ناهد وإنما واصلت سيرها ، وأرادت أن تعبر الشاب وأرادت آمال أن تفعل مثلها ، ولكن الفتى مد زراعيه ونظرت إليه ناهد نظرتها الساجية وقد أضافت إليها بعض عتاب وقالت في همستها المثيرة :

— الناس .

وقال الشاب :

— نحن وحدنا .

وقالت ناهد :

— ماذا تريد ؟

— ماذا تريدن أنت ؟

— أروح .

— أما يكفي هذا ؟

— ما هو ؟

— كفى .

— ماذا ؟

— أتمانعين في فسحة صغيرة بهذه السيارة ؟ .

— وماذا نقول في البيت ؟

— تقولين كان عليكما واجب في المدرسة .

والتفتت ناهد إلى آمال :

— ما رأيك يا آمال ؟

وقاطعهما الشاب :

- ١٠٨ -

- تعيش الأسماء . وحضرتك ؟ .

- ناهد .. هيه يا آمال .

- كما تشائين .

- وقال الشاب : هيا .. هيا .

- وحين بلغا السيارة نزل الشاب النحيف وهو يقول :

- أخيرا .. أهلا وسهلا .

- ودلف إلى المقعد الخلفي ، وأمسك بيد آمال ، فركبت إلى جانبه وجلست

- ناهد إلى جانب صاحب السيارة ، واندفعت السيارة إلى الطريق .

(٢١)

استطاع حسين أن يكتب شعرا ، ووافته الشجاعة فراح يرسل شعره إلى
انجلات فيقطع شعره طريقا واحدا ما له من عودة ، ويصبح آخر عهده به
اليوم الذى يطويه فيه ويغلقه .

ولم يجد من يسمع شعره إلا حمدي صديقه الوفى وترب ملعبه وأخا
دراسته . وكان حمدي على صلات بطلاب آخرين فى الأزهر سرعان ما
اتصلت أسبابهم بحسين . ولكنه كان ينجل أن يلقي عليهم شعره حتى راح
حمدي فى يوم يلح عليه أمامهم أن يلقي عليهم قصيدة « الطريق الجديد »
وألقى حسين القصيدة .

كانت القصيدة تروى عن الحياة التى خاض حسين غمارها على يد مفيدة
وإن كان لم يذكر فيها إلا الهوى العفيف والحب الخالص .

وقال أحدهم :

— الله الله يا سى الشيخ .

وقال آخر :

— إنها آمال يا سى الشيخ مجرد آمال .

وأح حمدي مرة أخرى أن يسمعهم قصيدته « الأمل الضائع » وهى تلك
التي نظمها يوم علم بزواج أخيه من هنية ، ذلك اليوم البغيض الذى أرسل
إليه فيه الحاج والى خطابا يدعوه أن يذهب إلى القرية ليحضر الكتاب فلم
يذهب ، ومكث يومين فى حجرته لا يبرحها لا عمل له إلا نظم هذه
القصيدة ، واستقبال مفيدة كلما عن لها أن تزوره .

وألقى حسين القصيدة وكان ذهنه مشغولا في أثناء إلقائها بالتحسر على آماله .. آمال الإنسان وآمال الشاعر فيه .. أتضاءلت الآمال حتى لم تصبح إلا هذه القصيدة ؟ .. أتراها تضاءلت فأصبحت قصيدة أم تعاظمت فأصبحت قصيدة .. أيهما أعظم ؟ الآمال المنهارة أم القصيدة الرائعة .. أهى رائعة ؟ ! لقد قلت شيئا على كل حال وإنى أحس ما فيها من ألم ، إن لم أقل شعرا ، وأنا أرى أخى ينتهب آمالى فأنا لن أقول من بعد شعرا أبدا .. أكان يعرف ما بنفسى .. ألم أكن أخفى حبي لا يدريه أحد ؟ وماذا يهم إن كان يعرف أو لا يعرف ، لقد حطم لى هذا كل شيء ، ولا يهمنى إن كان يعلم أو كان لا يعلم. النتيجة واحدة .. وكان يلقي القصيدة والدمعة تنحدر من عينيه على خده وهو مشغول أن يزيلها ، بل لعله أرادها أن تنكسب فى هذه المرة فلعلها تستطيع أن تكسبه شكل شاعر إن كان لم يستطع أن يقول شعر شاعر .

وكانت القصيدة صادقة ، وكان شكل حسين ودمعته والأفكار التى تمور برأسه وهو يلقي القصيدة .. كل هذا جعل الجو المحيط به يستجلب إعجاب أصدقائه ، حتى لقد صفق بعضهم حين انتهى منها ، وقال الشيخ فهمى عبد القادر :

- لابد أن تنشر هذه القصيدة .

وانتفض حسين من أحلامه ، ومسح دمعته وقال :

- تنشر .. وكيف تنشر ؟

- إننى أعمل مصححا فى جريدة « الورود » ، وأستطيع أن أقدم هذه

القصيدة لرئيس التحرير .

- صحيح ؟

- أى والله .

- فأنت تعرف رئيس التحرير ؟

- ١١١ -

- نعم .
- أتستطيع أن تنشر هذه القصيدة .. إننى لا أريد أجراً على نشرها .
- وقاطعه الشيخ فهمى عاجباً !
- أجراً .. إنك ستعيشنا على حسابك يوم تنشر القصيدة ..
- يظهر أنك لا تقدر معنى نشرك قصيدة فى مجلة « الورود » . معناها
- أنك ستصبح أحد شعرائها ، مثلك مثل محمود أدهم وأمين كامل .
- وقال حسين فى لهفة :
- محمود أدهم .. أتعرفه ؟
- أراه كل يوم .
- ما أسعدك ! .. أنا معجب بشعره الغنائى كل الإعجاب .
- غداً تعرفه .
- يا ليت .
- وقال حمدى :
- متى سنشر القصيدة يا شيخ فهمى ؟
- وقال الشيخ فهمى فى شعور عميق بالأهمية :
- كل آت قريب يا شيخ حمدى .. كل آت قريب .

(٢٢)

هنية فتاة بيضاء ناصعة البياض ذات شعر لا هو بالأسود الداكن ولا هو بالأصفر الفاقع ، وإنما هو بين بين تطلقه بعد أن تزوجت دون أن تلم تأثيره بمنديل أو ضفيرة ، وهى ليست طويلة بل لعلها إلى القصر أقرب ، سمينة بعض الشيء وإن كانت الآن سمينة غاية السمن ، ذات عينين واسعتين وفم أوضح ما فيه شفتان غليظتان ، تلقت تعليمها فى الكتاب ، فتعلمت الجهل من أوثق مصادره . فرحت يوم زواجها بمحمد غاية الفرح فقد كان الزواج فى ذاته هو الأمل المنشود الذى تهفو إليه أحلامها إذا أمست وأفكارها إذا أصبحت ، ولو كانت تدرى كيف خطبها محمد ، أو كيف خطبت لمحمد لسرددت كثيراً قبل أن تفرح . وإنما قيل لها عريس ، وابن الحاج والى ، والقاهرة ، وتصبح ستاً فى بيتها ففرحت ، وهى تقيم الآن فى بيت بالسيدة زينب هى ومحمد ، ومحمد مشغول عنها فى البيت بالمذاكرة وخارج البيت بأشياء كثيرة ، وهى تستجدى الصداقات من الجارات ، وتلتئم بينهن الصلات . ويذهب محمد إلى بيوت أصدقائه فيجد غير ما يجد فى بيته ، فالبيوت هناك نظيفة مرتبة وبيته قذر مهوش . فيزداد ضيقاً بزواجه ويكتم خبر زواجه عن زملائه ، فإذا ألحوا عليه أن يزوروه يتصل من الدعوة بشتى المعاذير فعنوانه كزواجه سر من الأسرار لا يبيحه لأحد حتى ولا لصديقه الأوفى مجدى عبد العزيز . وكان من الطبيعى أن يعتبره الأصدقاء عزباً غير متزوج فيشركوه فيما يشترك فيه غير المتزوجين ، فيشترك تدفعه إلى ذلك الرغبات المكبوتة فى المغامرة والمبالغة فى إخفاء أمر زواجه ، وهكذا صحبه مجدى إلى عريزة فذهب متردداً

- ١١٣ -

أول الأمر ، ثم أصبح يذهب إليها بلا صاحب ولا تردد . ويزداد محمد ضيقاً بزوجته ولكن هذا الضيق لم يمنعها أن تقول له بعد عام من زواجهما :

- لا بد أن أذهب إلى البلد لألد هناك .

وكان محمد يعتبر نفسه طبيباً منذ التحق بكلية الطب .

- لا يمكن ، وكيف أكون طبيباً وتلدين في البلد ؟

- وأنا لا يمكن أن أضع بعيداً عن أمي .

- نرسل إلى أمك تأتي إلى هنا وتلدين في المستشفى .

- لقد لذرت أن أجعل الحاجة زينب أم عوضين هي التي تولدني .

- الحاجة زينب .. هذه المرأة العجوز الراحشة اليدين .

- ما لها ؟.. أليست هي التي جاءت بك إلى الحياة ؟

- بل إنها هي التي أودت بأمي إلى الآخرة .

- لن يولدني غيرها .

- بل سيولدك الطبيب .

- لن يكون هذا .

- لن يكون إلا هذا . سترين .

وكان محمد يواجه امتحانه ولكنه لم يجد بداً أن يسافر بامرأته إلى البلد

ويعود في اليوم ذاته .

وحين انتهى محمد من الامتحان سافر فوجد امرأته قد وضعت له ولداً ،

ووجد أباه قد أسماه أحمد . وحين يبدأ العام الدراسي الجديد يرجو أباه أن

يبقى زوجته وابنه عنده حتى يستطيع أن يفرغ هو للمذاكرة ، لأن الطفل

سيجعل الأمر عسيراً عليه . ويحس أبوه في وخز الحديث أنه تعجل في أمر

زواجه ، ويعود الضباب يتصاعد أمام عينيه ، ويرحب بكنّته وحفيده أن

يقيما ما حلا لابنه أن يقيما .

- ١١٤ -

ولا تشعر هنية من ذلك حرجاً ، بل إنها تحس نفسها أقرب إلى الحياة التي تحبها فقد ضاقت بالقاهرة هذه الفترة التي أقامت فيها ، وكل هذا لم يمنع إحساساً واهناً في نفسها يلح عليها أن عمداً يريد أن يتعد عنها ، ولا تأبه كثيراً بهذا الإحساس فقد جاء أحمد ولا مفر لمحمد من أحمد ومن أم أحمد .

(٢٣)

كان حسين جالساً في حجرته حين جاءت مفيدة وأغلقت الباب من خلفها ، وبعد حين قالت :

- لم أعد أنا الوحيدة .

- لا أفهم .

- تعرف غيرى .

ومسح حسين الدمعة المنحدرة عن عينه وقال :

- أنا ؟ من قال هذا ؟ !

- مثلى لا يفوتها هذا .

- أبداً والله .

- لا تحلف إنك شيخ محترم ، لا تحلف .

- أحلف صادقاً .

- والله إن حلفت على المصحف ما صدقتك .

- يا شيخة اعقلى .

- اعقل أنت يا شيخ .. تريد أن تلف على أنا ، وقد كنت قطة مغمضة

وفتحت أنا لك عينيك .

- على فكرة .. أين القطة ؟ .

- ١١٥ -

- القطة .. وهل تسأل عليها .. إنها هي الأخرى أحست أنك لم تعد تهتم بها فتركتك إلى غيرك .

- من غيرى ؟

- لا شأن لك .

- وهل هي وحدها التى تركتنى إلى غيرى ؟

- ومن غيرها ؟

- لعلك أنت أيضاً تفكرين فى تركى .

- أنا لا أترك صاحبى حتى وإن كنت أعرف أنه يلعب بذيله .

- هل القطة عندك ؟

- أتريدنى أن أسلم لك عليها ؟

وأطلقت ضحكة مجلجلة حتى لم يسمعا الطريقة الأولى على الباب .

وحين خفقت الضحكة سمعا الطريقة الثانية وانحبست أنفاسهما ، وأرادت مفيدة أن تقوم عن السرير فأمسك بها حسين وأبقاها حتى لا يخرج السرير حساً . وعاد الطرق إلى الباب صافياً واضحاً ، وعاد الصمت إلى الحجرة أشد صفاء ووضوحاً ، وألح الطارق مرة ثالثة ولم يسمع جواباً . وإن كانت الضحكة الأولى ما زالت أصداؤها ترن فى أذنيه . حتى إذا يئس الحاج والى قال فى نفسه أترك له فرصة أن يكون منفرداً ، ونزل السلم والضباب يغطى درجات السلم جميعاً . لهذا كان يريبه ؟ .

ألهذا يقدم له المال والعون والأبوة ؟ إن قطع عنه المال أضاع مستقبله ، وإن قدمه .. أيقدم له المال ليزنى ؟ ولكنه يذاكر ، إنه يقدم له المال ليصبح صاحب شهادة ، لا ، لن يرده الزنى عن المذاكرة .. أهذا هو الشيخ الذى سيصبح واعظاً ؟ ويتزايد الضباب أمام عينيه .

- ١١٦ -

حين عاد الشيخ والى إلى حسين ، اجتهد ألا يبين أنه فهم شيئاً أو سمع ،
وقبل حسين يده ومسح الدمعة المنحدرة ، وعأوده ذاك الشعور بالعجز
والاحتقار لنفسه أمام الحاج والى . وقال الحاج :

- كيف حالك يا حسين ؟

- البركة فيك يا آبا الحاج .. الحمد لله .

- قال لى عبد الحميد أفندى مسعود ناظر المدرسة الإلزامية إنك تنشر
شعراً فى مجلة الورود .

- نعم يا آبا الحاج .

- أنا أحب الشعر وأحب الشعراء ، وأنا متأكد أن هذا لا يشغلك عن
دروسك .

- لا أبداً .

- أنت فى ثانوية الأزهر هذا العام . أليس كذلك ؟

- نعم يا آبا الحاج . إلى أمتحن الآن .

- طبعاً المذاكرة على قدم وساق .

- طبعاً يا آبا الحاج .

- أتريد شيئاً ؟

- البركة فيك .

- أراك لا تسأل عن الحاجة .. أنسيته يا حسين ؟

- لا قدر الله يا آبا الحاج .. كيف هى ؟

- تسلم عليك .

- أبقاها الله .. يا آبا الحاج أنا كنت سأسافر إليك .

- كذا .. إنك منذ سنين لم تزر البلد .

- لا والله كنت مسافراً إليك ، لأراك وأرى الحاجة .

- ١١٧ -

- ولماذا أيضاً ؟

- أريد أن أكلمك فى موضوع .

- خيراً ؟

- أريد أن أدخل كلية دار العلوم .

ونظر الحاج والى إليه ملياً وصمت ، وخالجه فكرة ألحت عليه حتى قال :

- وتظل بالجنة والقفطان ؟

- والله أريد أن ..

- مفهوم .. على كل حال يسرنى أن تصبح معلماً .. إن هذا أقرب إلى ما كنت أريده لك . فالواعظ فى رأى لا يفيد قدر ما يفيد المعلم . المستمع إلى الواعظ يعلم أن وظيفته هى أن يقول هذا الكلام فالاستجابة له لا تكون عادة كاملة . أما المعلم فإنه مع تعليمه للمادة التى يقدمها يعلم الأخلاق بطريقة غير مباشرة ، والأخلاق هى كل شىء يا أستاذ حسين .. أليس كذلك ؟

وأحس حسين النعمة التى غافلت الحاج وتسربت إلى الحديث وقال :

- طبعاً .

وأحس صوته منعجساً فتنحج وعاد يقول :

- طبعاً .

- بلدنا يحتاج إلى الأخلاق أولاً ثم إلى العلم .. بهما نستطيع أن نخرج العدو ونكون وطناً عظيماً . ولكن الأخلاق أولاً يا أستاذ حسين .. الأخلاق أولاً .

ومسح حسين الدمعة المنحدرة وعاد يتنحج وهو يقول : طبعاً .. طبعاً .

- على بركة الله يا بنى .. وهذا مبلغ يكفى لإحضار حلتين جديدتين

ما دمت تريد ذلك .. هيه .. أتركك أنا .

- ولماذا العجلة يا آبا الحاج ؟

- ١١٨ -

- أريد أن أزور محمدًا .. إنك لا تزور أخاك يا حسين .
- أخاف أن أشغله فكلية الطب صعبة يا آبا الحاج .
- زره يا حسين فلن يكون لك إلا هو ، ولن يكون له إلا أنت .
- أنا آسف يا آبا الحاج .

وخرج الحاج وودعه حسين إلى باب السلم ، وانتظر حتى غاب عن ناظره ، ثم راح ينظر إلى الجنيحات العشرة التي تركها له ، ثم طواها ووضعها في جيبه في عناية بالغة . وانحسر عنه شعور العجز والاحتقار لنفسه .

* * *

يوم انتهى الامتحان اتفق حسين مع أمين كامل الشاعر الذي ينشر معه في مجلة الورود أن يقيما حفلاً خاصاً لهما يدفعان تكاليفه مناصفة ، يشتركان فيه زجاجة من الكونياك ، ويدعوان فتاة يعرفها أمين لا تتقاضى إلا قدرًا ضئيلاً من المال . وكان حسين في دخيلة نفسه يريد أن يحتفل أيضاً بأول يوم يلبس فيه البدلة ، ولم يجد أنسب من زجاجة كونياك وفتاة أمين احتفالاً بهذه المناسبة . وقبل أن يحل موعد الحفلة راح حسين يلبس بدلته الجديدة في عناية بالغة ، فلبس القميص والبنطلون فلم يلق مشكلات تعترضه ، حتى إذا أراد أن يعقد رباط الرقبة أشكل عليه الأمر وراح يربط ويفك ، أو يربط فتعقد عليه الأمور ، حتى إذا يتس وضع الرباط على السرير ينتظر مفيدة لعلها ترى حلاً لهذه المشكلة ، ولكن طال غيابها فأراد أن يقوم إلى مواعده دون رباط الرقبة ، ولكنه تذكر ما سيلقيه من سخرية أمين فجلس في موضعه وقد صمم ألا يذهب إن لم يعقد رباط الرقبة . وفجأة دخلت إليه مفيدة فعاجلها قبل أن تفكر في موضوع آخر ، فراحت تربط له الرباط كما تفعل لابنها الصغير ، وأكمل هو ملبسه وانتقل من الباب لم يشكرها إلا بقبلة عاجلة .

- ١١٩ -

وحين بلغ شقة أمين وجده جالساً فى بهو منزله وحيداً وأمامه الزجاجاة لم تفتح وسأله :

- وأين الشغل ؟

- فى الداخل .

ولم يتمهل بل اندفع إلى الحجرة الوحيدة فى الشقة ، وكان الوقت فى الغروب والشبابيك مقفلة ، ولكنه رأى كتلة آدمية جالسة على الأريكة فارتمى بجانبها ، ومد فمه يقبل فاستقبله شعر خشن كثيف وطالعه صوت رجل :

- من أنت ؟

ولم ينزعج حسين وإنما مسح دمعته ، وقد أدرك أن الفتاة مع آخر دعاه أمين ، فقال دون أن يفكر :

- أنا حسين شحاته ، ومن أنت ؟

وقال الشاب على الناحية الأخرى من الفتاة :

- أهلا ، أنا محمود أدهم .

فقال حسين وهو يحتضن مكاناً خالياً من جسم الفتاة :

- أهلا فرصة سعيدة .. من سنين وأنا أريد التعرف بك .

- ها نحن أولاء تعارفنا ..

وحين خرج الثلاثة من الحجرة ، وجد حسين أن الحفل لم يكن مقصوراً على أربعتهم فقد جاء أغلب كتاب المجلة ، وأعلن أمين أن الحفل مقام لمناسبة إزاحة الجبة عن جثة حسين شحاته . وكان الشعراء منهم قد أعدوا قصائد بهذه المناسبة . وارتجل حسين قصيدة يفخم فيها من شأن نفسه ويهون من أقدار الناس جميعاً إلا هو ، وجرت الكأس والضحكات .

(٢٤)

لم يعد زين العابدين بك يستطيع أن يسهر كثيرا ، فكان كلما جاء إلى القاهرة مدعيا زيارة ابنته المقيمة عند جدها يذهب إلى صديقته الجديدة نعمات هشيكة بعد الظهيرة ، فيجلس إليها في بيتها ثم يصحبها بعد ذلك في عربة حنطور تجوب بهما الجزيرة ، حتى إذا اقترب المساء سارت بهما العربة إلى الكباريه فيتركها هناك وينصرف هو إلى بيته أو مقهاه .

لم تكن نعمات هشيكة جميلة ، لا ولا كانت فتاة في مقتبل العمر ، إنما هي بقية من ماضٍ تغلف في الكباريه متروكة لمثل زين العابدين ليقنع بها نفسه أنه ما زال الفتى الذى كان منذ نيف وعشرين عاما .

وهكذا كانت نعمات قانعة بنصيبها من زين العابدين ، وقد كانت امرأة تحسن الحديث وتستطيع أن تعيد إلى زين العابدين ماضيه صورا من الحديث بعد أن عجز أن يستحضره فتوة وشبابا . فهي تذكره بغزواته مع العراقية ، وسنية شخلع ، وأنيسة ولعة وغيرهن . وتقص - ومن القصص ما هو خيال - كيف كن يتشاجرن ليحظين بصحبته . ويقول زين العابدين فى نفسه لعل هذا كان حقا ويحاول أن يقنع نفسه أن لعلها لا تكذب ، فإذا عجزت نفسه أن تقتنع راح يلتذ هذا الكذب ويحاول أن يقربه من الصدق فيهمس إلى نفسه ليس من الضروري أن يكون كذبا لأنه لم يقع ، فإنه كان خليقا أن يحصل على أية حال . ومن أدراى فنعمات أدري بدخائلهن وما كان يدور بينهن من حروب وقتال .

ولم تكن نعمات تريد من هذا الحديث إلا إدخال السرور إلى نفسه فهي نعلم أنه يهدى إليها أقصى ما تستطيع ثروته أن تحتمل ، وأنه يقدم لها كل ما

يطبق أن يقدم ، وما كانت تريد أن تشق عليه فى شىء حتى لا ينقطع ما بينهما ، فقد كانت على ثقة أن صلتها بزين العابدين هى خاتمة المطاف فى حياتها الطويلة العريضة فى دنيا الكباريه . فكانت تدرى أنها تنهى حياتها العملية بزين العابدين ، فهى متشبثة به تشبثها بالحياة ، فهى مند نيف وأربعين عاما لا تعرف لنفسها حياة إلا الكباريه والصديق .

وقد أصبحت فى الكباريه مشرفة إدارية فهى لا تحس أنها أنثى إلا مع زين العابدين ، وإحساسها أنها أنثى هو كل شىء بالنسبة إليها .. كل شىء .. فهى تكاد تثق أن حياتها تنتهى بانتهاء الصلة بينها وبين زين العابدين .

أما زين العابدين فقد كان يدرى أنه لا يملك أن يتعرف بخير من نعمات هسيكة . فأما شبابه فقد ولى وهو يدرى ، وأما ماله فهو لا يكفى إلا ما يستمر أمره ، وما دام قد أصبح بلا شباب ولا مال فليس فى العالم خير من نعمات ترد إليه الشباب فى قصصها ، وفيما تمثله من ماضيه وماضيها ، وتبقى عليه المال بعدم مبالغتها فيما تطلب وعدم ضيقها بما يعطى .

كان زين العابدين يصبغ شعره وكان يحس أنه بصبغته هذه يصبغ عجزه ، وهذا التيبس الذى ألم بأطرافه ، وهذه الغضون التى تكاثرت حول عينيه وفى وجهه بل وفى جسمه كله ، بل إنه كان يحس أنه يصبغ الأيام الشاحبة من الشيخوخة ، أياما فى بياض الثلج وجهوده كان يجرى عليها الصبغة وينظر إلى المرأة ويتسم ، وحسبه عند نظره إلى المرأة ابتسامة ، لا لم يعد يطمع فى هذا الفرح العريبد الذى كان يتواثب فى نفسه كلما نظر إلى المرأة ، لا ولم يعد يريد هذا الاطمئنان غير المبالى الذى كان يشيع فى نفسه عندما ينظر إلى المرأة ، وهو بطبيعة الحال لم يعد يفكر أن يشعر بهذا الزهو الذى كان يثب إلى قلبه من المرأة .. بحسبه من المرأة ابتسامة . وأحيانا كانت الصبغة ينصب لونها ، فكان زين العابدين يرى الشعرات البيض المتفلتة من الصبغة تلتق

بالشعرات السود ، فكان يفرح من هذا اللقاء . فحبيب إلى نفسه أن يلتقى الشباب بالشيخوخة ولو كان هذا اللقاء فى ألوان ، وإن كان هذا اللقاء مصطبغا تكلف فيه هو الشباب بفرشاة وصبغة وفرضت فيه الشيخوخة نفسها كسنة من سنن الطبيعة وفرة من فتراتنا . ولكنه كان يفرح على أية حال ويداعبه أمل ، مجرد أمل أن تهب إليه من شبابه نسمة ، أو نسمة من حين إلى حين مهما تباعد ما بين هذا الحين وذاك الحين .

كانت القاهرة تودع الشتاء ، وكانت النسمات تهب بعيد الظهيرة حانية هيئة المسرى كأنها تصل بين شتاء بارد تودعه القاهرة وصيف قلائط تستعد لاستقباله ، أو كأنها بشائر من الربيع أرسلها كما يسبق الحراس المواكب . واستقبل زين العابدين عربة ذات حصانين يبدو بوضوح أن أحدهما ذكر والأخرى أنثى ، كما يبدو بوضوح أنهما تزاملا فى هذه المهنة فترة طويلة من الزمان فيبينهما هذه الألفة المفروضة بين زميلين قديمين ، فلو أطلق كلاهما لعانق كل منهما ذراع الآخر فى حنان الآدميين الذين تقدمت بهم السن ، ولم يعودوا ينتظرون من المستقبل إلا أن يستعيدوا معاً ذكريات من الماضى الطويل . وكان سائق العربة رجلا فى فتوة الشباب عريضا ضخما لا يعبا كثيرا بما بين الحصانين من ألفة وتواد ، بل إنه حتى لا يورعى حرمة الذكر أمام أنثاه ولا رقة القلب فى معاملة الأنثى ، فهو يسوط كليهما فى حركة يأتيها عفوا كأنها جزء من واجبه ، وبشكل يقطع أنه لا يكن كثير رحمة لزميليه فى العمل ولولاهما ما كان له عمل . من اليسير أن يدرك من يراه أنه اشتراهما منذ قريب وأنه قد دفع مقابلهما ثمنا لا يستحقانه ، وهما على ما هما عليه من تقدم فى السن لم يكن صاحب العربة رحيما على الحيوان الأبرم فيهما ، كما لم يكن رحيما على كبر السن الذى يمثلانه ، وإنما كان يثار للعرق الكثير الذى بذله فى سبيلهما .

وكأنما كان الحصانان يروحان أن يجدا في شيخوختهما شيئا من الراحة أو شيئا من التوقير على الأقل ، فحين لم يجدها من صاحبهما الجديد راحا يفرضانه فرضا بمشية وانية غير عاجلة ولا مبالية بهذه السياط التي تنهمر عليهما ، وكأنما يريدان أن يقولوا لكم عرفنا أمثال هذه السياط ولكنك في آخر المطاف مضطر أن تقدم إلينا أوفر الطعام وأحسن العناية وإلا حرمناك رزقك جميعا ، فللشيخوخة تجربتها وفائدتها في كثير من الأحيان .

وهكذا سارت العربة في هدوء على الرغم من صخب السائق . وزين العابدين يحاول ما وسعه الجهد أن يملأ فراغ المقعد في العربة بجسمه ولكن هيهات له أن يستطيع فقد ضمّر جسمه مع الأيام ، ألم تضر أيامه أيضا ؟ ولكنه لا يريد أن يصدق الضمور في جسمه أو في أيامه ، فهو يتوسط المقعد ويضع يدا على يمين ويذا على يسار ، ويفرج ما بين رجليه قدر ما يستطيع ، واضعا عصاه على الكرسي الصغير المقابل له ينظر إلى الذين يمر بهم يكاد يسألهم ماذا ترون ؟ ألا ترون شبابا وهذه الورود الحمراء ألا تصنع لى شبابا ؟ وهذا الشعر الفاحم ، فما الشباب إن لم يكن كذلك ، وتمر به الأعين فتبتسم حيناً أو تعبره كظاهرة تعودت أن تراها فما تحس فيها جديدا .

ووقفت العربة عند بيت مهترئ القسمات حاول أن ينتحر فعاجله صاحبه بالإسعاف ، ونصب له مساند من الخشب تأخذ الطريق على من يريد السير على الطوار ، حتى ليخيل لرائيه أنه عجوز مال على ذراعه فنام واستقرت به الحال في نومته ، أو لعله يذكر آخرين بواحد من أهل الكهف أصابته نوبة الإغفاء وهو مستند على ذراع له ، ولكنه كان عند زين العابدين بيت نعمات ، وكان عند نعمات الماوى الذى تلجأ إليه فى زمان تولى وشيخوخة تسارع إليها الخطو .

- ١٢٤ -

طلب زين العابدين من السائق أن ينتظر ، فأمر السائق الخليل بدوره ألا تتحرك وألحق أمره بسباب كثير ، والتفت إليه الحصان الذكر والغمامة على عينيه ، ثم التفت إلى زميلته ومسح شفثيه بلسانه ثم استكان . ونزل زين العابدين من العربة ونفض الشارع بعينيه كأله مقدم على مغامرة ، حتى إذا اطمأن إلى خلو الطريق دلف إلى الباب المختفى بين الأعمدة التى تسند البيت .

ولم يطل غياب زين العابدين وعادت معه نعمات ، وقد ارتدت فوق ملابسها معطفا جديدا اشتراه لها زين العابدين منذ قريب .
كان وجه نعمات مختفيا وراء كثير ، ولكن لم يكن الحجاب من الأشياء التى كان يحتجب وراءها الوجه .

وسارت العربة وقبل أن ينطق زين العابدين التفت إليه السائق نصف التفاتة وقال :

- الجزيرة ؟

وقال زين العابدين فى مرح :

- تعجبني .

واتجهت العربة إلى الجزيرة ، وقال زين العابدين :

- أنت اليوم قمر .

وقالت نعمات وقد ابتسمت عن أربع أسنان ذهبية ، وعن تجاعيد كثيرة حول فمها :

- اليوم فقط يا عمر ؟

- وكل يوم وشرفك .

- أين كان هذا ، كنت لا تسأل عنا أيام سنية شخلع . الله يرحم أيامها .

- أنت التى كنت منصرفة عنا .



- ١٢٦ -

- وهل كنا نتوصل ؟
- أيام .
- ألا تعجبك أيامنا هذه ؟
- حلوة والنبي حلوة يا ننع .
- أراك تتحسر على سنية .
- أنت أنسيتنى الكل .
- يا ترى صحيح ؟
- والنبي صحيح .. صحيح والنبي .
- كنت أيام سنية ..

وراحت تعيد على مسميه أيام مجده وهو يزداد انتفاخا بجانبها ، وينظر إلى المارة يكاد يستوقفهم ليسمعوا ما يسمع وقد تسرى في داخله فى لحظة عابرة همسة تقول كذب ما تسمع ، ولكن سرعان ما يكتهم هذه الهمسة فإن الحقيقة كثية عندما يحلو الخيال ، وعلى كل حال ما أقرب الواقع من الخيال ، وعلى كل حال هو مبتهج يكاد يطير من البهجة . نسى الشيخوخة والصبغة ، ونسى الحقيقة لم يعد يذكرها ، لم تعد الحقيقة عنده إلا هذا الذى ترويه نعمات ، ووقائع تشركه هى فيها فى جرأة ودرية ومران ، وهو لم يفعلها .. أو لا يذكر أنه فعلها .. بل إنه يكاد يذكر أنه فعلها .. بل إنه واثق أنه فعلها وأنها الحقيقة هى الحقيقة .. وتسير العربة .

ويصل موكب الذكريات والأساطير إلى الجزيرة ، تمر العربة بعربات أخرى وتمر بسيارات ، والذكريات تنهمر وزين العابدين فى نشوة هيهات أن تبلغها نشوة الخمر مهما تتزايد ، وينظر زين العابدين إلى العربات والسيارات لو استطاع أن يصرخ فيمن بها : أتعرفون أنتم الحب والشباب ؟ تعالوا فانظروا

- ١٢٧ -

كيف كنت ، بل فانظروا كيف أنا إلى الآن . ويزداد إنعاما في العربات والسيارات الواقفة يرميها بنظرات محايدة ليس لها معنى ، وتسير العربية . ولكن العربية تبلغ سيارة مكشوفة ، ويقول زين العابدين في نفسه ، مكشوفة .. أليس لها غطاء ، ويعم النظر ثم ينتفض انتفاضة مجنونة ويعود ينظر ، إنها هي . ويقول :

— بنتي ؟؟

ويخيل إليه أنه قالها في نفسه لم تنطق بها شفتاه ، وما درى أنه صرخ وراح السائق يبحث الخيل على العدو ، وهي تأتي إلا أن تسير ، وأمسكت نعمات بملابسه ذاهلة لا تدري ماذا تفعل أو تقول :

ويقول زين العابدين ذاهلا :

— قف .. قف يا أوسطى .

وتقول نعمات :

— ماذا تريد أن تفعل ؟

ويرد السؤال الرجل إلى بعض العقل ، وإن كان جسمه قد أصبح مرجلا يغلي ، ويلتفت إلى نعمات فتطالعها منه نظرة ذاهلة حائرة كسيرة مخدولة ، وتعيد سؤالها :

— ماذا تريد أن تفعل ؟

ويقول في حيرته الذاهلة :

— خذى .

ويخرج من جيبه جنيها .

— خذى هذا وامشى أنت .. نعم اتركى العربية .

وتنزل نعمات إلى الطريق تبحث عن عربة ، وينظر زين العابدين إلى

السائق يقول له في استجداء آمر :

- ١٢٨ -

- انتظر أنت .

ويقصد إلى آمال جالسة مع شاب فى المقعد الخلفى من سيارة مكشوفة
غير عابى بناهد فى السيارة نفسها ، وفى ثورة مكبوتة يضع يده على ذراع
ابنته التى كانت مسترخية على جانب السيارة ، وكأنما وجدت ثورته
انفجاراتها فى تشبثها بذراع ابنته ، ولم يقل شيئا إلا :

- قومى .

وانتفضت آمال .

- بابا !!

وقال مرة أخرى فى نفس الثورة :

- قومى .

وفى لحظة كان ركاب السيارة منتثرين حولها ، وكانت آمال مخرجة إلى
العربة المنتظرة . وسارت العربة .

وقال زين العابدين للسائق :

- إلى محطة مصر .

وانتظر القطار ساعة ونصف الساعة لم يقل كلمة واحدة ، بل حتى لم يعد
يفكر ، إنما كل ما سيطر على ذهنه أنه يريد أن يذهب إلى بيته فى قرية
الحمدية ، ولا شيء آخر .

وحين حل الموعد انتزع ابنته الصامتة بدموعها التى تنشال على وجنتيها
وركبا ، وسار القطار .

(٢٥)

لم تكن عزيزة جميلة ، وإنما هي شفتان غليظتان ، وشعر أرغم على الاستواء إرغاما ، فهو مفتول في نهايته بأسطوانة تبقى عليه استواءه . وهى ذات عينين ضيقتين وآمال أشد ضيقا من عينها ، لها قصة تكررت حتى لتكاد تصبح من كثرة تكرارها كأعمال الحياة اليومية التى لا تستحق الرواية ، كانت خادمة ، وكان فى البيت مراهق . وحين اضطرتها الحقيقة المتخفية فى أحشائها أن تعلنها ذهبت إلى المستشفى ودفع أبو المراهق النفقات فى كرم ، ثم أعطاها أيضا عشرين جنيهها ثمن سكوتها وشرفها فى بيعة واحدة ، وكان لا بد لها أن تقبل فإن البضاعة التى باعته لا يقبل شراءها إلا هذا الذى اشترىها ، فهو محتكر للصنف . وكانت لن تجده هذه الجنيهات العشرين على أية حال ، فقبلت ما عرض عليها . وقبل أن تخرج من المستشفى كانت إحدى المرضات قد عرفتها بسيدة أخرى تتاجر وبضاعتها اللواتى بعن شرفهن كعزيزة ، وانضمت عزيزة إلى المعروضات فى بيت الحاجة نبوية . وكانت الحاجة نبوية قاسية فى معاملتها لبضائعها ، ولكنها - والحق يقال - كانت تسافر فى كل عام إلى الحجاز تلقى بأحبالها من ذلوب التجارة والقسوة جميعا ، ثم تعود إلى القاهرة بقلب متهىء لكل ما تعودت أن تمارسه من أعمال.

وهكذا لم تصبر عزيزة طويلا على الحاجة ، فسرعان ما أقامت تجارة حرة وحدها ، وبعد أن همست إلى زبائنها بمكانها الجديد - جمعت ملابسها إلى هذا البيت الذى تستقبل فيه زبائنها القدامى ومن استجد منهم بعد ذلك ، غير مغالية فى الثمن فقد كانت تدرى أنها ليست جميلة .

الضباب

- ١٣٠ -

ولم تكن تجارتها رائجة فقليل من كان يعرفها ، وقليل هذا الذى يدفعه من يعرفونها ، فهم فى أغلب الأحيان طلبة فى الجامعة ممن لا يحبون أن يلتقوا بتلاميذ الثانوى فى الأماكن العامة .

وكان محمد فى يومه هذا ضيقا أشد الضيق بحياته جميعا . فهو متزوج وغير متزوج فى وقت واحد . وهو على كرهه لزوجته يحس أنه بحاجة إلى إنسان . لا لم تكن الوحدة إنما هو يحس أنه ضائع غير وحيد ، نعم إنه ضائع . هذا هو التعبير الذى أحس بصدقه حين نبت كالهمس فى نفسه .

ضائع لا يدري لماذا ؟ لم يكن وهو بجانب أبيه يحس الضياع ولم يكن وهو بجانب زوجته يحس الضياع ، وإن أحس الضيق لها والكراهة ولكنه لم يكن يحس الضياع ، أما الآن فأصدقاؤه كثيرون ، ولكن ليس بينهم من يستطيع أن يجد فيه أباه أو هنية .

هل أريد أبى حقا ؟ ألم أكن أضيق بتسلطه وفرضه رغباته دون أن تكون لى فرصة أن أقول ما أريد ، فإذا أنا آخر الأمر لا أرى إلا ما يرى ، بل ولا مستقبل إلا ما يرسم . فهأنذا وحدى أخط مصير نفسى بيدى ، أى مصير لماذا لا أموت ؟ ماذا تخسر الدنيا إذا مت أنا ؟ ، أنا فى كلية الطب ، ولن يستطيع طالب فى كلية الطب أن يصبح مهندسا أو محاميا . زوجنى ممن أراد هو ، وجاء ابنى يؤكد هذا الزواج ويشبهه إن كان فيه مجال لشك ، فماذا بقى لى من مصيرى لأخطه .

وقادته قدماه إلى عزيزة واستقبلته استقبال زبون قديم ، وقال لها بعد

حين:

- أريد أن أعرض عليك موضوعا ..

- تفضل .

- هل أنت مشغولة كل أيام الأسبوع ؟

- ١٣١ -

- على حسب ..
- طيب ، هل أنت مشغولة طول اليوم ؟
- على حسب أيضا ..
- السعوى ..
- هه .
- أريد ..
- قل ماذا تريد ؟
- لا .. لا شيء ..
- اسمع ياسى محمد .. نحن نسمع الكثير .. الزبائن لا نجد مكانا أحسن من عندنا لإفراغ كل ما عندهم .. قل .. أنت مثل أخرى .. إن لم أستطع أن أريحك فأنا لا أستحق أن تعرفنى ..
- لا ، لا شيء والله إلا أننى لا أدرى لماذا أحب أن أجلس إليك .
- صحيح ؟
- أحب أن أجلس إليك ..
- أهلا وسهلا ..
- أنت الوحيدة التى أستريح إليها .. أنا اخترتك أنت من بين كل اللواتى عرفتهن .. أنا الذى اخترتك بمزاجى أنا .. بكيفى .. فأنا أريد ..
- قل يا سى محمد .. قل ولا تخجل ..
- أحب أن أجيء إليك كلما أمكننى ذلك .. وأجلس إليك مجرد جلوس ولن أعطلك .
- يا أخى تفضل . أهلا وسهلا ..
- مسألة الفلوس .. ؟
- لا .. لا تتكلم فيها يا سى محمد .. لا تتكلم فيها .. يا سلام .

- ١٣٢ -

ونظرت إليه نظرة طويلة .. فتى فى ريق الشباب طويل القامة أسمر الوجه ،
ذو عينين كالمرآة تعكسان ما يسقط عليهما من نور . ولكنهما لا يشعان من
داخلهما نورا ، يبدو عليه أنه كجهاز للاستقبال اللاسلكى .. ولكنه لا
يصلح للإرسال .. يضحك إن سمع ما يضحك ويحزن إن سمع ما يحزن ،
ولكنه لا يثير الضحك أو الحزن فى أحد . ولهذا كان أصحابه يحبونه .
وقالت عزيزة :

- أنا أيضا يا سى محمد لا أجد راحة عند أحد كما أجدتها عندك .. أحس
وأنت تسمعننى أنك فعلا مهتم بما أقول ، الآخرون لا يسمعون ما أقول ..
لماذا لم تطلبى منى أن أجيء للجلوس إليك ؟
- خشيت أن تظننى أريدك أن تأتى بجرّد دفع الفلوس .. أنت متزوج يا
سى محمد .

وقص عليها محمد كل ما كان يكتمه عن الأصدقاء الأقربين .

(٢٦)

كان زين العابدين يجلس فى غرفة الاستقبال بمنزله وحوله رهط من أعيان القرية بينهم الحاج والى ، وكان القلق يسيطر عليهم جميعا فقد كان الراديو يذيع أنباء الحرب فى ثورة محمومة امتدت من أوروبا فشملت العالم أجمع بلغت قرية الحميدية .. وزين العابدين والحاج والى ، وهذا الرهط الطيب الذى لا يتصل له سبب بالحرب إلا أن ينزعج ، ويسيطر عليه هذا القلق الآخذ الوبيل .. النفوس منهم هالعة لا تدرى ما المصير فى الغد .. والأيام المقبلة كلها مغلقة بدخان قاتم من نيران الحرب ، كل فرد منهم ينظر إلى غده فى ذعر ، تختلف بينهم أسباب الذعر ولكنهم جميعا متفقون على الذعر والقلق والترب للغد الكاخ المغبر المستخفى فى أطواء الدخان ، وأصوات الطلقات ، وآهات الصرعى ، وضجيج الجنون ، وصراخ المطامع ، تغشيها الدعاية ، ويهتك عنها الدمار أستار الخداع .

الراديو يكاد ينفجر من هول ما يذيع ، وزين العابدين والحاج والى والرهط الآخرون صامتون لا يتحرك لسانهم بكلمة وإن ثارت فى نفوسهم ، لا يستمعوا فحسب وإنما لأنهم وجدوا من الصمت ستارا يخفون وراءه القلق الراعد بين جنوبهم .. وانتهى المذيع من أخباره وشمل الصمت الكون أجمعه حولهم لحظات وظلوا هم فى دوامة من صمتهم ، وما لبث الراديو أن عاد إلى الحديث مرة أخرى : « تسمعون الآن » أغنية الأمل الضائع « شعر حسين شحاته غناء نجوى مصطفى » ، ولم يكن الحاج والى يتوقع أن يسمع اسم ربيبه مذاعا وشعره غناء ، فأحس كأن الدنيا حوله تهنئه ، وسرعان ما تصاعد الضباب أمام عينيه ، ثم راح ينبج طبقة بعد طبقة حتى لم يبق إلا

غلالة رقيقة من الضباب .. وجاءت الأنغام وواكبت الأبيات اللحن ، ونظر الحاج والى إلى زين العابدين والآخرين فوجدهم ناظرين إليه وعلى فم كل منهم ابتسامة كأنه يهنئه بها ، وأنعم النظر إلى الوجوه وقد راحت موجة الدعر تنحسر عنها شيئا فشيئا فهم ينعمون بما يسمعون ، بل إن بعضهم يعصم شفتيه ، وآخر منهم يقول « الله ، الله » !! وزين العابدين يهز رأسه ، وأصبحت الغرفة ألحانا وانحسر عن هذه الحجرة من العالم قلق الحرب المروع ، فالنفوس ترف مع النغم ، والقلوب تفتح للآمال وتسرجع الذكريات ، والدنيا - هنا فى هذه الحجرة - دينا ودود فيها حب وفيها متعة وفيها سرور وعلى الأرض .. من هذه الحجرة السلام .

وانتهت الأغنية ، وراح الحاج والى ينظر إلى زين العابدين ينتظر منه أن يقول كلمة . وقالها زين العابدين آخر الأمر ..
- الشعر هائل يا حاج والى ..

وتصاعدت بعد هذه الجملة أحاديث الإعجاب من الجالسين ، وأحس الحاج والى نفسه الصدئة تنقع فى السعادة ، ودار الحديث بعد ذلك عن الأغنية والشعر ، وفكر الحاج والى - وهو فى دوامة الفرح - كيف أصبح الحديث مشرقا وبهيجا بعد أن كانت ريح الحرب القاتلة هى التى تسيطر عليهم . وأحس الحاج والى أنه يريد أن يصبح وحيدا فهو يستأذن ويقوم إلى الطريق المنفرد من القرية . إلى الليل .. ليل القرية الذى يشيع الوحدة فى النفس بصورة يعجز عنها فى أى مكان آخر .. ومشى الحاج والى لا يسمع إلا أنفاس الليل ، حتى لقد نفت مسامعه عنه صرير الصراصير ، ونقيق الضفادع ونباح الكلاب ، فليس ثمة من حوله إلا أنفاس الليل فى القرية ، بتلك الرائحة التى تنتشر فى أمسيات الريف .. رائحة الأعشاب الخضراء وهى تحترق ، اختلطت برائحة الندى ، وقد استقر على أوراق الشجر .

- ١٣٥ -

وكان الحاج والى وهو سائر يشق سحابات من الضباب لا يدري أهى التى تعود أن تتراكم أمام عينيه ؟ أم أنها سحابات آتية من العشب الأخضر المحترق ؟ ..

نعم إن حسين لم يعد يسأل عنه ، وهو منذ حصل على مرتب من وظيفته قطع ما بينهما قطيعة توشك أن تكون كاملة .. نعم إن حسين عرف مرات كثيرة بمرض الحاجة بمبة ومرض الحاج والى فلم يكلف نفسه عناء خطاب يرسله ! .. ونعم إنه لا يزور حتى أخاه فى القاهرة . ولكن مهما يقطع حسين ما بينه وبين الحاج بل ما بينه وبين أخيه فإنه لا يستطيع أن ينكر أن الحاج والى هو الذى جعل منه هذا الإنسان الذى يديع الراديو اسمه وتغنى له المطربات ، لا مهرب له من هذا وإن جهد هو أن يهرب من ماضيه ..

وماذا كنت أريد منه ؟ .. فلأخذ طريقه فى الحياة موفق الخطوات .. فلا والله ما تميت عنده شيئا .. ولا السؤال .. لا ولا السؤال !! يكفينى منه أن يسعد الناس مثلما أسعد اليوم زين العابدين بك ومن كان معه ، ومثلما أسعدنى .. نعم لقد أسعدنى ..

ومضى الحاج والى يشق الضباب ورائحة العشب الأخضر المحترق المختلطة برائحة الندى تلاحقه ، غير ملتفت ولا عابئ بصرير الصراخ ، ولا بنقيق الضفادع ، أو نباح الكلاب .

(٢٧)

ألهى محمد دراسته فى كلية الطب وعين فى قصر العيني وانقطعت صلته نهائيا بعزيرة دون أن يكون له أو لها يد فى هذه القطيعة ، فقد تدخل بينهما هتلر من ألمانيا وتشرشل من إنجلترا فقطعا الصلة بينهما . توافد الجنود الإنجليز وأصبحت عزيرة شخصية مرموقة فى دنيا الليل ، وتفرغت لهؤلاء الزبائن تجيب طلباتهم ، وتخلت عن أصدقائها القدامى مرغمة على ذلك إرغاما ..

وعاد محمد إلى نفسه وحيدا .. رفيقته الجديدة سماعة يعلقها على رقبته فرح بها يوما ، وأسبوعا ، وشهرا ، ثم أحس بها طوقا حول عنقه يحيط به يوشك أن يخنقه وعاد ضائعا ، فرح بنفسه وهو يمر بالمرضى كإله صغير يشخص المرض ويصف الدواء يوما وأسبوعا وشهرا ، ثم اكتملت الصورة فى ذهنه .. إنه بهيم يدور فى ساقية ، والسماعة حول عنقه هى النير على رقبة البهيم . نعم هو بهيم ، بهيم منذ أدرك الحياة .. سحبه أبوه من أنفه حتى تخرج فى كلية الطب ، واليوم يسحبه المرض والمرضى ممسكين بسمعته يوجهونه بها أنى يشاؤون .

أريد أن أفعل أنا شيئا .. أريد أنا أن أفعل شيئا .. وكأنما وجد ضالته فى زوجته .. تذكر فجأة أنها ما زالت زوجته .. لماذا ؟

ولم يكلفه الأمر كثيرا . ورقة الزواج فى يده .. فما هى إلا جلسة عند المأذون الذى تكفل بإحضار الشهود حتى كانت زوجته طالقا .. ووضع ورقة الطلاق فى خطاب إلى أبيه وبات ليلته غير متزوج . فكر لحظة فى ابنه أحمد .. وسرعان ما همست له نفسه : « البركة فى الحاجة » .

وانقضى الزواج ..

- ١٣٧ -

وأحس أنه صنع شيئاً .. ولكنه ما لبث أن عاد إلى السماعه والمرضى والمرضى .. وما لبث أن عاد ضائعاً ..

* * *

سمع حسين بطلاق أخيه فقد كانت أنباء البلدة تأتيه بانتظام من صديقه حمدي . وعاود حسين الأمل القديم أن يتزوج هنية .

لماذا ؟ لا أدري ؟ كيف هي الآن ؟ لا أدري ؟

أمل قديم طالما كنت أهفو إلى تحقيقه ؟ كان الزواج بها مكانة أطلع إليها .. وكنت أطلع أيضاً إلى أن أصبح شيخاً ذا عمامة وقور . وأنا اليوم أحاول أن ألسي العمامة ما وسعني الجهد ، وكنت أرجو أن يسألني الناس الفتوى .. فأين أنا الآن من الفتوى ؟ ، وكنت أرجو أن تأتي هنية هذه بالذات فتقبل طرف الجبة وتساألني في شؤون دينها ؟ فأجيب .. فأين أنا الآن من هذا جميعه ، ولكني أريد أن أتزوجها .

قد يقبل أبوها .. ولكن ماذا يقول الحاج والى ؟؟

وطلب حسين إجازة من المدرسة وقصد إلى قريته التي فارقها منذ سنوات بعيدة .. ونزل إليها .. غريباً نزل .. لم يعرفه أحد ولم يعرف هو أحداً . الفلاحون وجوهمهم ليست غريبة عنه وهي غريبة ، يعرف السمات ولا يعرف الأسماء . ويعرف الرائحة التي تهب عليه مختلطة بأنفاس القرية ، فتعود إلى ذهنه ذكريات يدفعها عن نفسه باذلاً غاية الجهد ألا تعود هذه الذكريات .. لا ، لا يريد ، لا يريد إلا هنية .. ثم يعود إلى القاهرة هناك حيث يضيع في الزحام الكبير ، ويكتب شعراً ويصادق من يجد عندهم نفعاً حتى ينتهي هذا النفع فتنتهي الصداقة .

- ١٣٨ -

مشى حسين فى القرية يرد عن نفسه الذكريات التى تتواكب عليه من أشجارها ، من تلالها ، من طرقها ، من بيوتها ، بل من سماتها ، ومن أنفاسها ، ومن رائحة أعشابها وزرعها .

لم يقصد إلى بيت الحاج والى ، لا ولا إلى بيت جده وإنما قصد إلى بيت أبى هنية .. فما كان يريد إلا هنية ..
قال لأبيها :

- أتذكرنى يا عم عبد الحميد ؟ ..

وتفرس فيه عبد الحميد لحظات قليلة ثم قال :

- الشيخ حسين ؟ .. كيف أنت يا شيخ حسين ..

- الله يطيل عمرك .. عرفتنى بعد هذه السنين الطويلة ، وبعد أن غيرت بالعمامة الطربوش .

- كيف أنساك يا شيخ حسين ، وأنت من بلدى .. كيف حالك ؟
- الحمد لله .

- نسمع أغانيك فى الراديو .. كلامك حلو والله يا شيخ حسين ..

- الله يكرمك يا عم عبد الحميد ..

وصاح عبد الحميد من مكانه :

- القهوة يا هنية ..

وقال حسين فى تظاهر باللعثمة :

- أسفت والله لما حصل من أخى !!

- كل شىء قسمة ونصيب يا سى الشيخ ..

- يا ترى يا عم عبد الحميد لو أردت أن أصلح ؟؟

- حد الله بيننا وبين محمد يا شيخ حسين .. هو الآن دكتور ونفسه

كبرت علينا .. يا ابنى أرايت عمرك زوجاً لا يقيم مع زوجته ؟ ثم لا يكتفى

- ١٣٩ -

بهذا بل يطلقها أيضاً ولا يفكر فى ابنه الصغير .. لا .. لا يا شيخ حسين ..
حد الله بيننا وبين محمد ..

- أنت لم تفهم قصدى يا عم عبد الحميد ..
- خيراً ؟

- أنا أريد أن أخطب هنية لنفسى .. أنا مدرس ومرتبى ..

- انتظر يا ابنى .. أنت تريد أن تتزوج طليقة أخيك ؟

- ما أحله الله لا يحرمه العبد يا عم عبد الحميد ..

وسكت عبد الحميد مطرقاً ، وأمعن التفكير ثم قال :

- هل سألت الحاج والى يا شيخ حسين ؟

وأرتج على حسين فما كان ينتظر هذا السؤال .. ثم قال متلعثماً :

- أردت أن أسألك أولاً ..

- لا يا ابنى .. فهنية لاتزال أم ابنهم ، والحاج والى تأثر مما فعله ابنه ..

تأثراً كبيراً .. وهو يبر البنية حتى اليوم ، ويأتى لزيارتها دائماً ويسأل عنها ..

وأنت على كل حال يا شيخ حسين ابنه .. لا ينكر المعروف إلا ابن الحرام ..

أنت ابنه يا شيخ حسين ..

وقال حسين مسرعاً ..

- طبعاً ، طبعاً يا عم عبد الحميد .. وهل أستطيع الإنكار ؟ !

- اسأله أولاً يا ابنى .. اسأله أولاً ..

ودخلت هنية حاملة القهوة .. ونظر إليها حسين .. إنها ليست هى .. لا ،

ولا هى التى تصور أنه سيراها . ولكنه مع ذلك مصمم على الزواج بها ..

لماذا .. ؟

لا يدري لماذا ؟

* * *

حين دخل حسين إلى البيت الذى ربى فيه استقبله البيت برائحة القرن التى لم تتغير .. وبرائحة الذكريات التى مازالت تطالعه منذ نزل إلى القرية . إلا أن رائحتها هنا فى هذا البيت كانت أشد عنفاً كأنما هذا البيت هو المصدر الذى توزعت عنه الذكريات إلى القرية جميعاً ..

أحس حسين الخوف يسيطر على قلبه لا يدرى لماذا .. ومد يده إلى عينه اليسرى يمسح الدمعة المنحدرة . وتوقف فى صحن الدار يقلب النظر يحاول أن يستعيد بعض شجاعته ، ولكن الخوف كان يهاجمه فى قسوة .. خوف لا يدرى مآتاه ولا أسبابه وإنما هو رعشة فى القلب ، وبرودة تتمشى فى أوصاله . وتنحنح وتردد صدى لحنحته فى البيت جميعاً ثم عاد يمسح دمعة لم تكن موجودة وراح يدير عينيه مرة أخرى حوالبه .. ثم خطا خطواته الأولى ، وصعد السلام .. ثقیل الخطوات حتى إذا بلغ منتهائها وجد الحاج والى جالساً على أريكته لم يغيرها ولم يغير جلسته عليها .. كأنه كان جالساً ينتظره عائداً من الكتاب . أو كأنه ظل جالساً هذه السنوات الطوال لم يتحرك من مكانه . وغير بعيد منه على الأرض جلست الحاجة بمبة تلاعب طفلاً أدرك من فوره أنه أحمد بن محمد .. وإن خيل إليه للحظة عابرة أنه محمد نفسه .. ونظر الحاج والى ونظرت الحاجة بمبة ودون أن يشعرا ارتسمت ابتسامة مريحة على شفاههما وهمهما بألفاظ لم يكن حسين يحتاج إلى كثير ذكاء ليدرك أنه ترحيب يجمع إلى الدهشة الصدق والحب ، وقيل حسين يد الحاج والى .. ثم ركع على الأرض يقلب يد الحاجة ، وسحبت يدها لترت ظهره فى حنان .. وراح الكلام يسيل من شفيتها :

— أوحشتنى يا حسين .. أسمع كلامك فى الراديو ، وأقول لنفسى و الله ربيت ونفعت .. وأشتاق إليك ..

- ١٤١ -

وأسعفت الدمعة من العين اليسرى حسيناً فلم يمسحها ، وأحس أنه يحتاج إليها .. فقد كانت عيناه عاصيتين عن دمعة تأثر .

ولم يزد الحاج والى عن قوله :

— كيف أنت يا حسين ؟ ..

— الحمد لله يا آبا الحاج .

ثم التفت الحاج إلى زوجته :

— جهزي العشاء لحسين يا حاجة ..

— من عيني .

وقامت وأمسكت أحمد من يده وخرجتا ، ولم يكن يخفى على الحاج أن حسيناً يريد أمراً ولكنه آثر ألا يسأله ، وإنما راح يسأله عن عامة شأنه فينقطع الحديث بإجابات تقليدية :

— كيف حال المدرسة ؟

— الحمد لله .

ويهوم الصمت ..

— أما تزال فى بيتك ؟

— لا .. نقلت إلى شقة .

ويهوم الصمت .

— أغانيك حلوة يا حسين .

— الله يقيقك يا آبا الحاج .

— اشتريت راديو خصيصاً لأسمع أغانيك ..

— الله يقيقك يا آبا الحاج .

ويهوم الصمت .

- ١٤٢ -

ويفكر الحاج فيما يمكن أن يكون سبب مجيء حسين ، ويفكر حسين فيما يمكن أن يكون فاتحة الحديث الذى يريد أن يسوقه .. ويرتفع صراخ أحمد لحظة ثم يظللها الصمت مرة أخرى فتعلو أصوات الضفادع والصراخ والكلاب ، ويتنحج حسين ثم يقول فى صوت متسلخ :

- أبا الحاج ..

- نعم يا ابنى .

ويرفع حسين يده إلى عينه الدامعة :

- أريد أن أعرض عليك أمراً ..

- قل يا حسين .

- أريد أن أتزوج ..

- على بركة الله يا ابنى .. ومن العروس ؟

وفى سرعة يقول حسين :

- هنية .. !

ويعتدل الحاج والى فى جلسته ويلقى إلى حسين نظرة داهشة :

- من ؟

- هنية ؟

- امرأة أخيك ؟ !

- طليقته .

- لماذا ؟

- أريد أن أصلح ما فعله أخى ؟ !

- هل تحبها ؟

وصمت حسين لحظة وتنحج وقال :

- ماذا ؟

- ١٤٣ -

- هل تحبها ؟

- نعم .

- هل تحبها حقيقة يا حسين ؟

- نعم .

- هل تحب أحداً يا حسين ؟ !! هل تحب أحداً على الإطلاق ؟

ودهش حسين من السؤال .. فاستغلق عليه الحديث هنيهة ، ثم قال وكأنه لم يسمع :

- نعم ؟

- أقول ! هل تحب أحداً على الإطلاق ؟؟ .. هل تعرف الحب ؟ نعم أنت

شاعر .. تقول الشعر في الحب والغرام والهيام ، ولكن هل تعرف الحب يا حسين ؟

- يا آبا الحاج أنا مقصر ، ولكن معروفك ومعروف الحاجة لا ينسى ..

- أنا يا ابني لا أسأل عن المعروف إنما أسأل عن الحب ، هل تعرف الحب

يا حسين ؟

وتنبه حسين إلى نفسه وكأنما جعله السؤال يحس أنه إنسان ناقص ..
ينقصه الحب . وأطرق ثم قال :

- إذا أمرت ألا أتزوج هنية .. فأنا طوع أمرك ..

وصمت الحاج وواصل حسين حديثه ..

- إنها شابة ، ومستزوج ، وأنا أولى من الغريب .. !

وأطرق الحاج بعض الوقت ثم قال في لهجة من يريد أن ينهي موضوعاً :

- اعمل ما تريد يا ابني .. اعمل ما تريد .

- كتر خيرك يا آبا الحاج .

- ١٤٤ -

ثم أطرق دون أن يحس فرحاً ولا حزنًا ، ومسح الدمعة عن عينه ولاذ بالصمت ، وارتفع صوت الضفادع والصراصير والكلاب ..

(٢٨)

أنهى محمد فترة التمرين بقصر العينى وعيّن طبيباً بالمستشفى الأميرى بالزقازيق .

واستقبل أمر تعيينه فى غير رضا ولا فرح .. فما كان يريد أن يكون قرياً إلى يد أبيه الذى خطط له مستقبله ، وما كان يريد أن يكون فى البلدة التى شهدته طفلاً وفتى .. إنه يريد أن يتعد .. يتعد ليشق لنفسه ما بقى من طريق ، يريد أن يختار أصدقاءه ، ويختار حياته كما يشتهى . أى موظف أحق فى وزارة الصحة اختار له هذا المكان ؟ .. لا شك أنه موظف يبحث عن أيسر الأمور .. سأل من أين محمد ؟ فقبل من الشرقية ، فقال يذهب إلى الزقازيق .. وماذا يستطيع محمد أن يقول بعد هذا .. فليرم به إلى الزقازيق .. وليصارع الضياع مرة أخرى .. فإن استطاع أن يتخلص منه فليرم فى شبكة أبيه والطريق الذى يريد أن يخطه له دائما ..

زاره أبوه .. واستقبله بكل ترحاب .. إنه يحبه .. لكنه يريد أن يخط لنفسه طريق نفسه . لعله كان يختار الطب لو ترك له أن يختار ، ولكنه هو لم يختار فهو يحس أنه مسوق فى طريق لا يملك فيه لنفسه مصيراً . أما كان يكفى والده أن ينجبه ، ويختار له اسماً ، ويختار له التعليم منهجاً ، كان لابد أيضاً لأبيه أن يختار له الطب ؟ ويختار له الزوجة ، ويختار له البيت الذى يعيش فيه؟؟ نعم إنه طلق زوجته .. ولكنه مع ذلك يحس أن الخيوط التى تربط حياته خيوط غريبة عليه ليس بينه وبينها آصرة من تعرف ، وهى غريبة عن

نفسه لا جذور لها فى أنحاء كيانه ، خيوط تمتد إليه من خارجه لم تنبت من داخله ولا هى نمت معه . لا .. ولا واكت حياته ، لا يستطيع أن يتذكر متى فكر فى كلية الطب ولا لماذا اختارها ولم يختَر غيرها ؟ لا .. ولا يستطيع أن يقول فى نفسه إنه قارن بين كلية الطب وغيرها من الكليات . لقد وجد نفسه فيها كما وجد اسمه محمداً ، وكما وجد زوجته هنية ، طريق دفعته إليه يد أبيه فما استطاع عنه حولا ولا منصرفاً ، واليوم يحل موظف الصحة الأحق محل أبيه فيختار له الزقازيق لا يستشيريه ولا يحاول أن يتعرف ميله .

القلق يساوره منذ جاء إلى الزقازيق .. الخوف .. لماذا .. ؟ إنه لا يدرى ! أهو يخشى أن تتلقفه يد أبيه مرة أخرى ؟ أم هو يخشى أن يغلبه الضياع على أمره ؟ !! أم يخشى نفسه فقد طالما ساورته الخشية من نفسه .. قلق لا يفارق نفسه .. فإن خلا لنفسه بعد ساعات العمل فتكت به نيران القلق فهو يلجأ إلى الأصدقاء من الزملاء ، وهم لا يقيمون فى بيت أحد منهم وإنما يقصدون إلى النادى .. وهم هناك لا يقصرون تسليتهم على الحديث وإنما يلجأون من ملالتهم إلى لعب البوكر . لعبة سهلة التعليم سريعة الكسب سريعة الخسارة . ولم يستغرق محمد كثير وقت ليصبح من اللاعبين الداومين . وقد كان أجراً لاعب على المائدة فما كان يخاف شيئاً إلا الخوف الذى يحس به وهو بعيد عن اللعب . كان عندما يلعب ينسى كل شيء ولا يعاوده القلق إلا وهو بعيد عن اللعب . وبعد .. فماذا كان يمكن أن يخفيه غير ذلك . إن قصر المرتب استطاع أن يطلب من أبيه عوناً .. ولن يرد أبوه له طلباً فهو من الناحية المالية آمن على نفسه ويستغرق فى اللعب . ويعرف أبوه أنه إذا أرادته يجده فى النادى ويعرف أيضاً أنه يقامر ، وتعود سحب الضباب تتكاثف أمام عينيه .. لا حول ولا قوة إلا بالله .. أربى اثنين فيصبح الأول زانياً لا يحفل بالمعروف الذى قدمته له حتى ليتزوج طليقة ابنى وأخيه ، ويصبح الثانى مقامراً

الضباب

.. ١٤٦ -

ويحتسب الله في أولاده ، ويعاوده السؤال القديم : لماذا نصر على أن نأتي بالأولاد ؟ ! . وتتجمد السحابة من الضباب أمام عينيه والسؤال في ذهنه ، ويسعى إليه وهو على المصطبة أمام بيته جاره الحاج مهدى :

- يا حاج أتستطيع أن تطلب لنا الدكتور محمد ؟

- نعم يا حاج مهدى .. فيم تريده ؟

- زوجة ابني عثمان متعسرة في الولادة .

- اطلبه من تليفون زين العايدين بك .

ويقوم الحاج والى إلى التليفون ويطلب ابنه وتخف كثافة الضباب أمام عينيه ويهتز السؤال في ذهنه بعض الشيء .

(٢٩)

منذ قدمت آمال إلى قرية الحميدية وهي ملقاة في البيت تطالعه من أبيها نظرات حائرة حائرة عاتية .. ! ومن أمها صوت دائم التقريع تتلون لغمته أبداً . وهي بين نظرات أبيها وصوت أمها في أتون من العذاب لا تجد ما تفعله إلا أن تجلس وحيدة حتى تأتي إلى أمها زائرات .. وتأمين أن أمها لن تستطيع أن تسيء إليها في حضرتها ، فهي تأخذ مكانها معهم وتستمع إلى الحديث وتشارك فيه . ولم يمض كثير وقت حتى أصبح لها هي زائرات في مثل سنّها ، وأصبحت حياتها هي أولئك الزائرات وأحاديثهن . ولم تكن أحاديثهن إلا عن أزواجهن والخوافي الخفية من أسرارهن يسعدن بأن يلقينها على مسمعى آمال ، فما تجدى الأسرار والأحاديث أن تبدد وحدتها أو تؤنس وحشتها .

- ١٤٧ -

وكانت زائرات آمال ينقلن إليها فيما ينقلن أحاديث القرية وأحداثها .. وهى هذه الأيام أكثر ترديداً لاسم الدكتور محمد ، فالقرية تتحدث عن مهارته فى الطب والولادة ، والقرية تسوق الأمثلة على مهارته ، حقيقة جيناً، مختلفة أحياناً ، والأحاديث تتواكب وتبلغ مسمعى آمال فيما يبلغها من أحاديث وتزعم فى نفسها أمراً .

فهى تصحو ذات صباح وتجد أنها مريضة ، وتريد أن يراها الدكتور محمد الذى تلهج القرية بمهارته ، ويدفع حب الاستطلاع أمها أن تستدعى محمداً الذى حملته طفلاً رضيعاً لترى كيف أصبح بعد أن صار طبيباً ، ولا يرى الأب مانعاً .. ويأتى الدكتور محمد .

ويدخل محمد إلى الحجرة وتلتقى عيون افترقت منذ سنوات طويلة .. عيون كانت طفلة لاهية وأصبحت اليوم شابة مرنت على النظر والنقد .. كان محمد مشوقاً إلى هذا اللقاء هو أيضاً .. كان يريد أن يرى هذه القطعة من طفولته كيف أصبحت حين مسها الشباب .

واستمرت النظرة لحظات . وبدأ أن كلا من الاثنين رضى عن صاحبه . وابتسمت الأم ، وصحا محمد فجأة يبدأ الكشف .. وحين أتمه التفت إلى الأم فى أدب :

- أسمحين حضرتك بملعقة لأرى اللوز ؟

- حاضر .

وخرجت الأم وقالت آمال فى صوت لا يخلو من السخرية :

- ما للوز وللمغص يا دكتور ؟

- أنا لا أرى بك شيئا ..

- إذن ؟

- لا أدري .. لعلك كنت تريد أن تكشفى أنت على !!

- ١٤٨ -

وضحكت وقالت : وأنت ؟ .. ألم تكن تريد ذلك ؟

- نريد أن نرى طفولتنا ..

- وكيف وجدت طفولتك ؟

- هى بخير عندك ولكنى لا أظنها بخير عندى ..

- لماذا .. أنت دكتور قد الدنيا ..

وضحك ساخرا وهو يقول :

- يتهيا لك .. أتصدقين كلام الفلاحين ؟

- لقد عرفت مرضى .

- لأنه نفس مرضى .

وتدخل الأم بالملعقة ، ويلقى الدكتور نظرة أخيرة على الحنجرة ولا يلبث

أن يقول فى هجة جادة :

- برد بسيط سأكتب لها دواء ، وأمر غداً إن شاء الله.

وتعرف آمال أنها وقعت من نفسه حيث تريد أن تقع ، ويخرج محمد ،

ولا يمر كثير وقت حتى يذهب محمد إلى أبيه :

- يا آبا أنا أريد أن أخطب ..

- من ؟

- آمال بنت زين العابدين بك ..

- من ؟

- ماذا يا آبا ، هل فى هذا بأس ؟ !

- يا ابنى طلعت فى العالى !!

- أنا يا آبا طبيب ولى اسمى ولى مركزى ..

- أخاف أن يرفض .. إنك تزوجت مرة ولك ولد .. وهم غيرنا يا

محمد.. !

— لا تخف .

ويعود الضباب إلى الحاج والى .. أكان لابد لى أن ألقى الرفض والهزاء
أيضاً . مالنا نحن ولزبن العابدين بك !!
ولا يسوف الحاج والى كثيراً ، بل ينتهز فرصة يخلو فيها إلى زين العابدين
بك ويتقدم بمطلبه .. ويدهش الحاج والى .. لقد رحب به الرجل .. رحب به
ترحيباً أخافه أكثر مما أفرحه .. ولا يمضى كثير وقت حتى يتم الزواج ..
ولكن الضباب لا يبارح الحاج والى كلما فكر فى شأن هذا الزواج ..

(٣٠)

أ تلك هى الحياة التى كنت أصبو إليها ؟ أهذا هو الفن الذى عشت
عمرى أهفو أن أكون واحداً من أهله ؟ أعيش فى رحابه .. وأقضى عمرى
فى ظل منه ؟ أهذا هو الشعر الذى كنت أريد أن ألظمه ؟ .. ماذا
أصبحت ؟ وكيف جنحت من الحياة إلى هذا الجانب المظلم فيها ؟ ، هذا
الجانب القائم الداكن .. من أنا ؟ خباز ! يجهز ما يطلب منه بلا فن ولا روح
ولا نوازع . أين هذه التهويمات التى كانت تراقص فى داخلى تريد أن
تصبح كلاماً ، وتلح فإذا هى متفجرة كالينبوع الأصيل دون حفر أو بحث أو
تنقيب !! ماذا أصبحت .. يا حسين تريد أغنية يكون معناها كذا وكيت ؟ ،
يا حسين تريد قصيدة تقول فيها كذا وكيت .. هم الذين يقولون وأنا أتلقف
أوامرهم لأجعل منها نظماً لا أجد فيه شيئاً من نفسى ، وإنما هى نفوسهم وما
يطلبون ! وهل أستطيع أن أقول لا ؟ ! وكيف أعيش ، منذ تزوجت هنية
وهى لا تترك عاماً دون أن تقدم إلى فماً جديداً يريد أن يعيش ويعيش . من
أعصابى يعيش يقنات من دمى ومن كرامة فى المهذرة ، لم يكن هذا ما

- ١٥٠ -

أريد.. كنت أحب الشعر أقوله وأجد فيه نفسى ومشاعرى أنا لا مطالب المطربين والمطربات . فأين منى هذا الشعر الآن ؟ .. أصبحت كآلة الكتابة أكتب ما يراد لى أن يكتب بفارق واحد : إنى أخرجه نظماً أمقته .. أمقته .. أين هذا من الفن ؟ ولكن هل يدري هؤلاء الأطفال فى صرختهم الجائعة بماذا يقتاتون ؟ بأشلاء فى الذى ودعته بلا أمل فى اللقاء .. ومن أين لى اللقاء ؟ .. ماذا أصبحت ؟ .. مدرس وموظف أغانى لدى المطربين والمطربات .. وتتسامع مصر بما أقول . ولكن ما أبغض ما أقول إلى نفسى ! .. هذا ليس أنا .. كلما امتدح أحد بعض مقطوعاتى أحسست كأنه يمدح غريباً لى أكرهه . وأعيش .. من جثة آمالى .. أعيش من دماء أحلامى . أعيش .. وهنية وأولادها يأكلون .. لا يدرون ماذا يأكلون ..

وانهمرت دمعة على خد حسين وتحسسها بيده ، ثم نظر إلى مائها على يده . وأنعم النظر وكأنما يريد أن يعرف من أى منبع انهمرت هذه الدمعة ؟ ، أهى الدمعة التى ألقها تنهمر دون أن يدعو إليها داع ؟ أم هى صادرة عن نفسه هذه التى يمزقها الألم وتأكلها النيران ؟ !

ودق جرس التليفون فى البيت فقد أرغمه عمله أن يكون فى بيته تليفون . وأمسك السماعة :

- نعم .

وجاء الصوت آمراً أكثر منه راجياً .. ولم يجد ما يقول إلا ..

- حاضر .

وسأله الصوت فأجاب :

- بعد أسبوع .

وجاء الصوت مرة أخرى فأجابه :

- ١٥١ -

- حاضر .. أقل من أسبوع .. نعم فهمت ما تريد .. نعم سيكون كما تريد .. نعم .. حاضر .. نعم .. حاضر .
ووضع السماعة وظل يردد .. نعم .. حاضر .. نعم .. حاضر .

(٣١)

أقام محمد وعروسه بالزقازيق واستطاع أن يخلو لها في أول حياتهما الزوجية بضعة أسابيع ، ولكن نداء القمار كان عالياً يطن في أذنيه طينياً متصل الجرس حتى لم يستطع أن يغفله ، فعاد طريقه إلى النادى ومائدة القمار، وعادت آمال إلى الوحدة .

إلا أنها في هذه المرة كانت في مدينة ، فما أسرع ما ارتبطت وأصر الصداقة بينها وبين جاراتها الساكنت بالطابق الأعلى ، والأخريات المقيمات بالبيوت المقابلة أو الملاصقة . ولكن ما أقل ما تغنى هذه الصداقات .. فللزيارات أوقات تنتهى عندها ، وهى أشد ما تكون حاجة إلى الصديقة فى الأوقات التى لا تصلح للزيارة .. هناك فى أعماق الليل حين لا تسمع إلا الصمت ولا ترى إلا الظلام .. فى هذه الأوقات التى تمتد بغير نهاية تريد هى الصديقة .. تريد من ينسبها أنها تزوجت بجرد الزواج .. تريد من يجعلها لا تذكر أنها تزوجت لأنها برمت بالسجن فى القرية .. تريد زوجها الذى تزوجته عن غير حب ليقول لها إنه يحبها .. أو ليقول لها أى شىء .. ولينتشلها من هذه الوحدة التى عانت منها الكثير .. هناك فى القرية لا يحيط بها إلا غضب أبيها وتزمت أمها .

لم تكن الجارات إذن يعنين شيئاً بالنسبة إليها ، فقد كانت الفلاحات بالقرية يجتنها فى نفس المواعيد التى تتبادل فيها الزيارات مع جاراتها ، لم يزد

عليها فى بيت زوجها إلا أنها أصبحت تزور معه القاهرة من حين إلى حين .. وكانت تستطيع هناك أن تزور صديقتها ناهد التى تزوجت هى الأخرى وإن كانت مازالت تسير حياتها كما كانت تسيرها وهى بعد فتاة فى المدرسة .. كانت هذه الزيارات إلى القاهرة هى المتعة الوحيدة التى أحسست آمال بها . ولم تكن قد أعدت نفسها لهذا الذى تلاقيه ، فحين لقيته امتلأت نفسها تمرداً وحنقاً ، حتى محمد بن الحاج والى .. يتركها ليلعب القمار ! وينفرد بها الليل ! لماذا تزوجته إذن ؟ .. نعم إنها تدرى أنها تزوجته لأنها لم تتوقع أن تجد غيره .. ولكن أياكون هذا مصيرها معه ؟ !! وتنظر إلى المرأة وتزداد سخطاً على محمد وعلى أبيها ، بل إنها تسخط أيضاً على هذا اليوم الذى عثر فيه أبوها عليها بالسيارة الواقفة بالجزيرة .

وكانت آمال حاملا فى طفلها الأول وكان موعد وضعها قد اقترب .. ولكن محمداً لم يعبأ كثيراً بهذا .. فإن يكن هذا القادم هو الطفل الأول لآمال فما كان الأول لمحمد .. فهو لا يزيد حين يترك البيت عن أن يسألها فى سرعة:

- أتحسين ألماً ؟

وتقول :

- لا .

فيأخذ سمته إلى السلم .. طريقه إلى المائدة التى أصبح لا يطيق العيش دونها .

وقد كانت فى هذا اليوم نحس الآلام ، ولكنها وجدت نفسها تقول لا .. فى غير مبالاة ، وكأنما خيل إليها أنها بهذا تعاقبه على إهماله لها . ونزل محمد وازدادت آلام الوضع ، وحاولت أن تتصل بزوجها بالتليفون ولكنها وجدته معطلا ، فأرسلت خادمتها إلى عدلية هانم التى تقطن بالطابق

الأعلى .. وسرعان ما نزلت عدلية ثم نادى زوجها أن يحاول الاتصال بمحمد فى النادى ، وأن يحضر سيارة أجرة لتقلهم إلى المستشفى . وكانت السيارة الأجرة أسرع من محمد .. وركبت عدلية وآمال ووقف زوج عدلية المهندس عزت زكى على باب السيارة حائرا ماذا يفعل إلى أن صاحت به زوجته .

- اركب يا عزت .. فلا يمكن أن نذهب إلى المستشفى بلا رجل معنا .
وركب عزت فى حيرة لا يدري ماذا يفعل . وتحركت السيارة ، وحين جاء محمد أخبرته الخادمة أن سيدتها سبقتهم إلى المستشفى مع عدلية هانم وزوجها .

و حين وصل محمد إلى المستشفى كانت آمال لا تزال تضع بينما كان عزت جالسا فى بهو المستشفى حائرا لا يزال .. وشكر محمد عزت على اهتمامه ، ولم يجد عزت مناصا أن ينتظر . ولبس محمد ملابس الأطباء .. وأراد أن يدخل إلى زوجته .. ولكن قبل أن يدلف إلى الباب كانت الولادة قد تمت ، وجاءت ابنته الأولى إلى الحياة دون أن يكون له نصيب فى معاونة أمها .. ولم تنس آمال هذه الوحدة التى عانتها وهى تواجه الأمومة لأول مرة فى حياتها . فابتدرت زوجها وهى تراه بعد الولادة مباشرة :
- ألم تنته البرتيته إلا الآن ؟ كثر خيرك يا محمد .. كثر خيرك يا دكتور محمد .

وأطرق محمد ولم يحاول أن يجيب ، بل ذهب إلى السرير الصغير الذى يحمل وليدته وظل يرنو إليها بنظرات فارغة فيها حذى وفيها خجل ، وإن كان يحاول أن يجعل فيها شيئا من الأبوة .

- ١٥٤ -

حين عادت آمال إلى البيت وجدت في ابنتها بعض العزاء عن الوحدة .
ولكن .. ولكن مازال الليل يفترسها منتهزاً فرصة وحدتها .. وتجلس إلى
جوار ابنتها سوسن ، ولكن الوحدة لا تزول مع سوسن .
وفي يوم كانت جالسة في الشرفة ورأت عزت زكى قادماً ..
ولم تدر لماذا سارعت إلى باب بيتها ففتحته .. وانتظرت حتى صعد عزت
فوجدتها واقفة بالباب .. وفكر أن يحييها ويأخذ طريقه إلى بيته ولكنها
سارعت تقول :

- لم أشكرك يا عزت بك على اهتمامك بى ..
- يا ستى العفو .. أنا لم أفعل إلا الواجب .
- لا .. أنت فعلت أكثر من الواجب .. كثر خيرك .. تفضل .
- شكراً .
- تفضل اشرب شيئاً .
- شكراً . ولكنى نحت عدلية في الشرفة ولعلها تنتظرنى .
- أهكذا ؟
- مرة أخرى إن شاء الله .
- أهلا وسهلا .
- عن إذنك ..
- تفضل .



(٣٢)

صلى الحاج والى الفجر حاضراً وقصد إلى الأريكة فى بهو بيته ، وجلس إلى جانب الحاجة بمبة التى كانت تعد له القهوة وصمت قليلاً ثم قال :

— ما رأيك يا حاجة بمبة ؟

وصمتت الحاجة بمبة وراحت تحرك القهوة على النار .. ثم سكبت بعضاً منها فى فنجان وأعادتها إلى النار مرة أخرى ولم تقل شيئاً ، وأدرك الحاج والى أنها لا تريد أن تجيب فقال لها :

— أليس أبو الولد أولى به ؟

وسكتت الحاجة بمبة مرة أخرى واستطرد الحاج والى :

— وهو أيضاً صغير لا يتحمل الذهاب إلى البندر كل يوم فى البرد الشديد.. وأنت عارفة برد الصباح المبكر .

وقالت الحاجة بمبة :

— ألم يكن أبوه يذهب فى البرد ؟ .. ماذا جرى له ؟ !

وأطرق الحاج والى قليلاً ثم قال :

— لم يكن لمحمد أحد فى البندر .. أستطيع أن أتركه عنده .

— وهل تعتقد أن أحمد له أحد الآن ؟ .

— لا حول ولا قوة إلا بالله .. أليس أبوه هذا ؟

تالت الحاجة بمبة فى صوت غاضب :

.. لا يا حاج ليس أباه .. أنت أبوه وأنا أمه .. هل رأيته يسأل عنه..

لأن لا يعلم إن كان الموعد قد جاء ليذهب إلى مدرسة البندر أم

. إنه ليس أباه ؟

- ١٥٧ -

- على مهلك يا حاجة .. إنه يعتمد علىّ عليك ..
- أنا لا أقول يشترى له شيئاً .. أنا أقول يسأل .. اسمع يا حاج .. أنا لا أطمئن أن يذهب أحمد ليسكن مع محمد .
- إنه أبوه .
- أعلم ولكن محمداً ليس عطوفاً .. وأخشى أيضاً على الولد من امرأة أبيه .
- وأنت حين ربيت محمداً ألم تكوني امرأة أبيه ؟
- أنا يا حاج والى أحبيت ابنك بل وأحبيت ابن ضرتى .. أنا ..
- نعم أنت خطأ فى الطبيعة .. أنت استثناء .. أنت لا مثيل لك يا حاجة .
- أخشى على أحمد من امرأة أبيه .
- اسمعى يا حاجة .. سأوفق بين رأيك ورأى .. أنا سأذهب الآن إلى بيت محمد .. وأكلم آمال دون علم زوجها ، وأرى إن كانت ترحب بأحمد أم لا .
- وسأفهم من طريقة إجابتها حقيقة شعورها ونتصرف بناء على هذا .
- قد ترحب ثم تسيء إلى الولد حين يقيم عندها .
- يا ستى لماذا نقدر البلاء قبل وقوعه ، وعلى كل حال إننا نستطيع دائماً أن نسترد أحمد .. أليس كذلك ؟
- وسكتت الحاجة ، وسكت الحاج وأخذ يشرب قهوته فى هدوء وقالت :
- هل ستأخذ أحمد معك ؟ ..
- لماذا ؟
- لا لزوم ؟
- أبداً .. إننى سأسألها فقط .
- وعاد الصمت إلى الزوجين لا يقطعه إلا رشقات الحاج والى للقهوة .

- ١٥٨ -

كان الوقت ضحى حين بلغ الحاج والى منزل ابنه ، وهكذا كان واثقاً أنه لن يجد محمداً بالمنزل . وصعد الحاج والى درجات السلم فى هدوء بطيء حتى بلغ الشقة التى يسكن فيها محمد ، ومد يده يريد أن يدق الجرس ولكنه فوجئ بزجاج الباب المصنفر يكشف له عن منظر أخذه .

ورأى الحاج والى شبحين يتعانقان أحدهما لرجل وآخر لامرأة شعرها مرسل على كتفها ، وطالت القبلة والحاج واقف ذاهلاً عن نفسه ويده نصف ممتدة إلى الجرس وعيناه شاخصتان إلى ما يرى وفمه مفتوح من الدهشة! لماذا لم يذهب محمد إلى المستشفى حتى الآن ؟ وانتهت القبلة وفتح الباب ولم يكن محمد فى بيته .. كان عزت زكى .. ولم يكن الحاج والى يعرفه . ولم يكن هو يعرف الحاج والى !! وقالت آمال فى لعنمة : - أهلاً عم الحاج ..

وظل الحاج صامتاً ، وأدرك عزت الموقف الذى يواجهه فنظر قليلاً إلى الحاج ثم وثب يعدو السلم فى سرعة مجنونة . وقالت آمال : تفضل ..

ودون أن يجيب الحاج والى أخذ سمته إلى درجات السلم والضباب يغشى طريقه ، والذهول يأخذ عليه مسالك تفكيره .

ظل الحاج والى سائراً بجانب بحر مويس يغمض عينيه ويفتحهما وكأنما يريد أن يحو ما رأى فتزداد الصورة التصاقاً بعينه وذهنه وكيانه كله .. ماذا يفعل ؟ أخبر ابنه ؟ إنه إذا فعل فكأنه قتله !! فإن الزوج يظل محتفظاً برجولته حتى يعرف أن زوجته تبث بشرفه .. المعرفة هى الحد الفاصل بين الشرف وعدم الشرف .. فكيف يقول لولده وحيد إنه بلا شرف ؟ !! أيقول لأبيها؟ وماذا يستطيع أبوها أن يفعل ؟

- ١٥٩ -

ووثب إلى ذهنه في هذه اللحظة موافقة أبيها السريعة على زواجها من محمد وهو من كان زوجاً لأخرى قبلها وله منها ولد ! !
لا بد أن زين العابدين يعرف عن أخلاق ابنته عوجاً .. ماذا يفعل ؟ أيقول له ؟ .. لا .. وجد نفسه يحنو على ابنه أن يعرف أحد حتى ولو كان أباه ، إن شرف ابنه مهين مضاع .. ماذا يفعل إذن ؟ ..
عاد أدراجه إلى بيت ابنه ودق الجرس وفتحت له آمال الباب ودخل إلى حجرة الجلوس ودخلت من خلفه وأغلقت الباب وظل ناظراً إليها فترة طويلة ثم قال :

- لماذا ؟

وصمتت وصمت حيناً ثم قال :

- ماذا أفعل الآن ؟ أقول لأبيك ؟ !

وعاد إلى ذهنها ذلك السجن الذى فرض عليها فى القرية فقالت فى سرعة :

- لا .

- إذن ماذا أفعل .. ؟ ماذا يمكن أن أفعل ؟ .. لو قلت لحمد قتلته .. وأطرقت آمال صامتة لا تدرى ماذا تقول ، وعادت إلى نفسها تلك الوسوس من وحدتها بالقرية فقالت دون وعى :

- لا تقبل لأبى .

- وأسكت ؟ .. أسكت كأنى لم أر شرف ابنى يلطخ على يديك .. أسكت يا ست آمال ؟ ..

وصمتت آمال لحظات ثم قالت :

- إنها أول مرة .

- أظنن أن هذا يهمنى كثيراً .. إن مجرد عزمك على هذا يكفى .

- ١٦٠ -

وساد الصمت .. وعاد الحاج يقول :

- من هو ؟

- المهندس الذى يسكن بالطابق الأعلى .

وعاد يقول وكأنه لم يسمع الإجابة :

- ماذا أفعل ؟ ماذا أفعل ؟ !!

وقام عن كرسية وتركها واقفة ، وقصد إلى الباب الخارجى وأخذ سيبله إلى الطريق يمشى بجانب بحر مويس والضباب يغطى طريقه ..

أهلدا كنت حريصاً على أن يكون لى أولاد ؟ .. أهلدا نجىء بهم ؟ .. ماذا

أفعل .. ماذا أفعل ؟ !!

لم يدر لماذا أراد أن يذهب إلى محمد ويراى .. أحس كأنه يريد أن يستوثق أنه لا يعرف عن زوجته شيئاً ، أو أحس أن ابنه جريح وأنه لابد أن يكون بجانبه ، لا يدرى أى دافع خالجه ، وإنما أحس أنه يريد أن يرى ابنه . ووجد قدميه تقودانه إلى المستشفى الأميرى الذى يقع على بحر مويس ، ذلك النهر الذى صاحبه منذ دخل فى غمار نكبته ولم يفارقه . ظل سائراً بجانب النهر حتى وجد نفسه أمام باب المستشفى ومع ظهور الباب طالعه سؤال لم يفكر فيه .. ماذا هو قائل لابنه ، أى سبب سيخلقه ليبرر هذه الزيارة ، ولم تطل حيرته .. فسرعان ما قفز أحمد إلى ذهنه . ودخل إلى المستشفى وسرعان ما استدعى له محمد الذى قبل يد أبيه فى محاولة جادة أن يخفى دهشته من الزيارة . ونظر الأب إلى ابنه وهو يقبل يده ، وأحس نحوه حباً كبيراً ووجد يده تربت ظهره فى حنان .. وتشبثت يده لحظة بجاكتة محمد ، فقد خالجت نفسه رغبة ملحّة أن يعانق ولده ، ثم استيقظ من خواجله .. فما تعود أن يعانق ابنه كلما لقيه .. والفرجت أصابعه عن الجاكتة ، وأمسك بيد ولده وقاده إلى الكرسي وجلسا :

- ١٦١ -

- كنت فى البندر ، وخطر لى أن أراك :
- ولم يكف هذا السبب عند محمد .. وأحس أن أباه مازال يخفى سبباً آخر.. فنظر إليه وحب الاستطلاع لا يريد أن يبارح عينيه وقال :
- أهلاً وسهلاً .. شرفت ..
- وهناك موضوع قلت أكلمك فيه .
- أنا تحت أمرك يا با ..
- أحمد ..
- وسكت الأب وسكت محمد ، وفكر الحاج والى أن أحمد ربما يكون رقيقاً على آمال يمنعها .. وقبل أن يسترسل فى تفكيره ، نظر إلى محمد وكأنما خشى أن يكون قد أبصر ما يفكر فيه .. فقال دون ريث تفكير :
- أنت تعلم أن موعد دخوله المدرسة الابتدائية قد حل .
- نعم .
- أخاف عليه من الصباح الباكر وبرده ، فأنا لا أنسى يوماً مرضت أنت فيه بالالتهاب الرئوى وتعلقت أنفاسنا بأبواب السماء حتى شفاك الله .
- أنا تحت أمرك .
- يخيّل لى أنه لو أقام معك ، لكان هذا أنسب له .
- أنا طبعاً ..
- وقاطعه أبوه ..
- وطبعاً أنا سأقدر زيادة التكاليف عليك .
- أنت لا تؤخر عنى طلباً .
- وهل لى إلا أنت يا ابنى ؟

- ١٦٢ -

وأحس سكيناً حادة وهو يقول هذا ، وعاوده الضباب .. أترأى ظلمتك
حين جئت بك إلى الدنيا ؟ ولم ير محمد ما يعاينه أبوه وكان يفكر فيما يريد
أن يقول ، وهوم الصمت على الاثنين لحظات ثم تنحج محمد وقال :
- الحقيقة أنني أطمئن على أحمد مع أمي الحاجة أكثر مما لو كان عندي في
البيت .

ونظر الأب ملياً إلى ولده وأدرك ما يريد ابنه أن يقول ، ثم قال :
- لعلك على حق .. طيب أقوم أنا .
- لم تشرب القهوة .
- وراءك شغلك .. سلام عليكم .
- مع السلامة يا آبا .

وقبل يده وهو يسلم عليه .. وخرج الحاج والى مرة أخرى إلى الطريق
وبحر مويس .. لم يعد موضوع أحمد يهمه في ذاته .. وإنما كان يريد أن يرى
محمدًا وقد رآه .. وسار في الطريق وعاد الضباب يغشى سبيله ، ولكنه نوع
آخر من الضباب .. رفع الحاج والى يده إلى عينه ومسح الدموع التي
تراكمت على أهدابه .

(٣٣)

دأب الحاج والى منذ ذلك اليوم أن يزور بيت ابنه فى كل وقت من أوقات النهار . ودهش محمد لهذه الزيارات المتكاثرة ولكن آمال عرفت ما يريد الحاج والى أن يفرضه عليها من رقابة .

وكان الحاج والى يعتبر نفسه المسئول وحده عما يجرى فى بيت محمد ، فقد حمل السر وحده لم ييح به ولا حتى لزوجه ، حمل السر وحده شر حمل عرفه فى حياته الطويلة .. كان يحس به سراً أشد وطأة من الحياة نفسها .. وكان كلما ضاق بسره قصد إلى الزقازيق وداهم بيت محمد .. وقليل ما كان يجد محمد ، وما كان هذا يعنيه فى شىء بل كان حين لا يجده يدخل إلى البيت ويظل صامتاً لا يتحدث . وتخصر له آمال القهوة ويشربها ويظل ناظراً إليها طوال جلسته لا ينطق ، بل يترك عينيه تقولان وقد كانتا تقولان كثيراً ، وكانت آمال تستمع إلى هذا الحديث الصامت فينصب على قلبها كأنه المدى القاطعة ، وتحاول ألا تنظر إلى الحاج ولكن عينيه الهادرتين بالحديث ما تلبسان أن تفرضاً عليها أن تنظر إليهما لترى وتسمع الحديث الصامت ، وتواصل المدى عملها فى قلبها لا بل فى كيائها جميعاً .

ويشرب الحاج والى قهوته ويطلق تنهيدة ينتزعها من أعماق آلامه ويقوم إلى الباب لا يسلم . فإذا أقفلت آمال الباب من خلفه تهاوت فى بكاء صاخب ثائر ثورة لا تدري كيف تنفس عنها .

وفى يوم بينما الحاج والى جالس معها . عيناه مثبتتان عليها قالت له فجأة:

— عم الحاج .

- ١٦٤ -

ولم يجب ، فواصلت الحديث :

- أتستطيع أن تقتلنى .

ولم يجب ، فواصلت الحديث :

- كنت قد هددتني أن تقول لأبى ورجوتك ألا تفعل .. أتراك إذا قلت له
تكف عن هذه النظرات .. قل له .. قل له .. فقط كف عن هذه النظرات .
وانخرطت فى البكاء ، ولم يقل الحاج والى شيئاً ، وإنما قام وانصرف شأنه
دائماً .

وفى يوم عرض عليها محمد أن يسافر إلى القاهرة ، وكأنما أنبتت كلمة
القاهرة فكرة فى نفسها لم تكن تخطر لها ..

وفى القطار قالت لمحمد :

- أنت الآن دكتور معروف فى الزقازيق يا محمد .

وأحس محمد الزهو وهو يقول :

- الحمد لله .

- صاحبتى ناهد قالت لى إنها تعرف زبائن من مصر جاءوا إليك فى

الزقازيق لتعالجهم .

- صحيح ؟

- ألم تكن تعرف ؟

- أنا لا أسأل الزبائن من أين جاءوا .

- ناهد قالت لى هذا .. وقد ذكرت لى أسماءهم ولكنى نسيتها .

- إذن فزوجك رجل مهم .

- أنت طيب ، محمد ليس فيك إلا عيب واحد .

- أعرفه .. إنه يسلينى يا آمال .. يجعلنى أنسى كل ما ألاقه أثناء النهار .

- يا ترى يا محمد لو انتقلنا إلى مصر .

- ١٦٥ -

- ماذا ؟

- إن اسمك كبير الآن .. ستجد زبائن أكثر من زبائن الزقازيق ، وقد تجد تسليّة أخرى .

- أما الزبائن فلا أعلم .. مصر واسعة وأخشى أن أضيع فيها وسط الزحام . أما التسليّة الأخرى فأشك كثيراً أن أجده شيئاً يسلينى عن الورق يا آمال .

- نجرب .

- ألا تخشين أن تكلفنا التجربة زبائن الزقازيق ولا تعوضنا بزبائن مصر ؟
- نحن والحمد لله لا نحتاج للمال . أنت وحيد أبيك وأنا وحيدة أبى ومرتبك يكفيننا .. فما الضرر فى أن نجرب ؟

- على شرط .

- قل شروطك كلها .

- أن تفقدى الأمل فى أن أترك لعب الورق .

- لا بأس .. يكفى أن أكون فى القاهرة وأنفس .

- وأطلقت تهيدة عميقة ، وأحست أنها أخيراً تستطيع فعلاً أن تنفس .

(٣٤)

حين أبلغ محمد أباه أنه نقل إلى القاهرة ، صمت الأب طويلاً حتى اضطّر
محمد آخر الأمر أن يقول :

— ماذا يا بابا .. أيغضبك هذا ؟

وظل الحاج والى صامتاً فترة أخرى ، ثم قال فجأة وقد عاوده شعور
بالخوف أن يرى ابنه الأفكار التي تدور برأسه :

— وما الداعي لهذا النقل ؟

— انجال هناك أوسع .

— هنا يعرفك الناس .

— وسيعرفني الناس هناك .

ولم يكن الحاج والى يحتاج إلى كثير تفكير ليدرك أن آمال هي التي ألحت
لإتمام هذا النقل ، ولكنه لم يستطع أن يقول شيئاً إلا :

— مصر واسعة يا محمد .

— والناس فيها كثيرون .

— أخشى أن تضيق هناك بين الأطباء بعد أن أصبحت هنا معروفاً .

— ألا تثق بي يا بابا ؟

— صمت الحاج والى قليلاً ثم قال :

— بل إنني أثق بك كل الثقة .

وعاد إلى الصمت ، وهوم السكون عليهما لحظات ثم قال :

— يا محمد خذ بالك من ..

ولم يكمل ، وقال محمد :

- ١٦٧ -

- ممن يا أبى ؟

وتنهذ الأب ثم قال : من صحتك يا ابنى .

وفهم محمد ما يقصد أبوه أو خيل إليه أنه فهم ، فأطرق فى استخذاء .
فقال الأب :

- إنك تسهر كثيراً ولا تراعى ..

وصمت محمد ، وأكمل الأب بعد تنهدة عميقة :
- صحتك .

وعاد الصمت مرة أخرى يخلق على الأب وابنه ، ثم قال الحاج والى :
- إنك تحتاج لفلوس للنقل ولإنشاء عيادة ..
وسكت محمد وقال الأب :

- خذ .. معى الآن مائة جنيه ، وإن احتجت لزيادة أرسل لى .
- أ طال الله عمرك يا با .

وانصرف محمد وظل الأب وحيداً ، وعندما قدمت إليه الحاجة بمبة وجدته
ساهماً مفكراً ولم تحاول أن تسأله عما به ، بل تركت الغرفة وعاد هو إلى
وحده وإن كان لم يفارقها .. لماذا تفعلين هذا بنا يا آمال .. لماذا تفعلين هذا
بنا ؟ ..

سرعان ما استعاد محمد صلاته بأصدقاء الكلية فقد كان يتصل بهم كلما
جاء إلى القاهرة ، فحين نقل إليها كان على علم بمكان أصدقائه جميعاً وفى
مقدمتهم مجدى عبد العزيز الذى أصبح طبيباً بمستشفى الملك حيث نقل
محمد، وهكذا التأم الصديقان مرة أخرى ، تجمع بينهما الذكريات القديمة
والزمانة فى المستشفى .

وما أن استقر المقام بمحمد وآمال وسوسن فى القاهرة ، حتى أخذ محمد
يبحث عن طابعتين : الطلبة الأولى رفقة يشاركونه فى اللعب ، والطلبة الثانية

شقة تصلح عيادة له . وقد حقق له مجدى الطالبين كليهما . فإن يكن مجدى غير هاو للعب القمار إلا أنه يجلس مع اللاعبين كل ليلة فى نادى القاهرة قانعاً بالمشاهدة عن الاشتراك فى اللعب ، وسرعان ما انضم محمد إلى هؤلاء اللاعبين واثقاً أن ليس بينهم نصاب يغش فى اللعب .

كما استطاع مجدى بما له من صلات ممتدة فى القاهرة أن يعثر لخمى على شقة مناسبة فى ميدان الأزهر لتكون عيادة له .

أما آمال فإنها قبل أن يستقر بها المقام فى القاهرة كلمت صديقتها ناهد ، وما أسرع ما تم بينهما اللقاء .

- أخيراً يا آمال .. أخيراً عدت إلى مصر .

- أنت لا تعرفين كم كنت أشواق إلى مصر وإليك .

- حدثينى عن أيامك فى الزقازيق .

- أيام سوداء .. لا أراك الله مثلها .

- سأعوضك عنها أياماً بيضاء مشرقة .

- احتاج إلى سنين طويلة لأعوض ما شفته من عذاب .

- هل كان لك أصدقاء فى الزقازيق ؟

- زوجات الموظفين .

- لا . أنا أقصد أصدقاء لا صديقات .

- اسكتى .

- وراء اسكتى حكاية .

وقصت آمال قصتها مع صديقتها الوحيد عزت ، وما فعله معها الحاج والى . و حين انتهت قالت ناهد :

- عبيطة .

- وماذا كنت أفعل ؟

- ١٦٩ -

- لماذا يكون هذا فى بيتك ؟
- وأين يمكن أن يكون ؟
- أنت عبيطة .
- هل لك أصدقاء ؟
- عدد شعر رأسى .
- وزوجك .
- يسهر فى الخارج وأسهر فى الخارج .. ألا يسهر زوجك ؟ .
- يسهر .
- سأعوضك عن أيام الزقازيق .
- سنرى .

(٣٥)

ذهب محمد إلى نادى القاهرة فى الساعة التاسعة وكان مجدى هناك ،
وتناولوا العشاء معاً وقاما ينتظران اللاعبين فى حجرة اللعب ، وجاء أحد
اللاعبين وقال لـ محمد :

- يظهر أنه لا يمكن عمل برتية الليلة .
- لماذا ؟
- يسرى وحمدى سافرا يعزيان زميلا هما فى المنصورة .
- قال مجدى لـ محمد :
- تأخذ إجازة ليلة .
- وقال محمد فى ضيق :
- وماذا تفعل !

- ١٧٠ -

وقال مجدى فجأة :

- عندى فكرة .. ألا تحب أن ترى بعض الد حريات !
- الحقيقة يا مجدى أن لا شىء عندى يسلىنى مثل اللعب .
- بل عندى أنا ما يسليك أكثر من اللعب .
- يا شيخ .
- اسمع كلامى .

- ماذا ؟

- أتعرف عزيزة !

- الله يرحم أيامها .
- إنها الآن فى عزها .

- ماذا ؟

- لها بيت تجتمع فيه السيدات من الطبقة الراقية ليلتقوا بآخرين .. الليلة هناك ليلة من ألف ليلة .. مرح وضحك وسرور .. لو ذهبت مرة لسيت القمار إلى الأبد .

- يا عم أنا متزوج وليس لى فى النسوان .
- وأنا أيضاً متزوج .. إننا سنجلس فقط نضحك ونلهو ثم نروح .
- وماذا تستفيد منا إذا كنا لن ندفع شيئاً .
- ليس من الضرورى أن يدفع جميع من يذهب إليها .. فإن القلة التى تدفع تعوضها عن جميع الآخرين .. هيه ماذا قلت ؟
- ما ترى .

وفى غير حماسة رافق محمد صديقه مجدى إلى بيت عزيزة .. وكانت الساعة قد جاوزت العاشرة بقليل حين دق مجدى جرس البيت ، وفتح الباب عن ضجيج صახب ، ودخل مجدى وهو يجرح محمدًا جرأً..



وحين بلغا أول الردهة رأيا مصادر الضجيج : نساء عاريات الصدور يطلقن الضحكات المعريدة ، وقد التفت حول صدورهن أيدي رجال تراوحت أعمارهم بين الشباب والكهولة والشيخوخة . وقال مجدى لصديقه :
- انتظر لحظة حتى أنادى عزيزة .

وتركه وحيداً ودلف داخل الشقة ، ولم يجد محمد ما يفعله إلا أن يطالع الوجوه فراح يمر بها . وفجأة تسمرت عيناه على زوجته آمال بين يدي رجل من هؤلاء .. لم يصدق .. وتفكر .. إنها هي .. وقد رآته وانتفضت من بين ذراع رفيقها . وأرادت أن تفعل شيئاً . لم تكن تدري ما تريد أن تفعل ولا يدري هو ، وإنما في لحظة حزم أمره على شيء والندفع نحو باب الخروج لاهثاً .. وخرج إلى الطريق .. أيقظتها ؟ .. زوجة داعرة وزوج قاتل وتُحل الجناية على سوسن وأحمد .. حبيبى أحمد .. ماذا يفعل ؟ .. وجد نفسه يركب سيارة أجرة ويأمر السائق أن ينطلق إلى المنيرة .. ماذا يفعل فى البيت .. نزل من السيارة وطرق باب البواب ، وخرج إليه البواب نصف نائم .. وسأله محمد :

- أتعرف مكان المأذون هنا ؟

وقال البواب :

- نعم .

وقال محمد فى حزم :

- تعال معى .

وطرق باب المأذون طرقاً ملحاً حتى فتح ، ودخل محمد والبواب وسائق السيارة الأجرة . وبعد دقائق كانت آمال طالقاً .

وعاد محمد إلى البيت وفتح الباب ووجد آمال بالبهو ، وقامت تجرى إليه :
- محمد .

- أنت طالق ، وهذه ورقتك .

- ١٧٣ -

ورمى الورقة على الأرض ، وأمسكت آمال يده :

- أرجوك .. أبوس إيدك.

ونتر محمد يدها وجرى إلى السلم . ووجد سائق السيارة الأجرة مازال واقفاً فسأله :

- أتذهب إلى الزقازيق ؟

- الآن ؟ .

- نعم .

- أذهب .

وفي الساعة الثانية من صباح اليوم التالى كان محمد يطرق باب أبيه ، وفتحت الحاجة بمبة الباب وارتفعت حين رأت محمد زائغ النظرات حائراً ملتاعاً . ودخل محمد :

- أين أبى ؟

وقال الحاج والى وهو يقف على باب حجرته :

- أهلا محمد .. خير يا ابنى؟

- آبا .. آبا .

واقترب الحاج والى من ابنه واحتضنه بذراعه اليمنى وسار به إلى الأريكة وجلسا .

- مالك يا محمد ؟

وانفجر محمد :

- طلقته بابا .. طلقته .. طلقته .

وأطرق الحاج والى قليلا ، وراح الضباب يتصاعد أمام عينيه ولم يجد شيئاً يقوله إلا : خيراً إن شاء الله .. خيراً إن شاء الله .

* * *

- ١٧٤ -

لم ينم محمد ليلته ، وإنما راح يتقلب فى فراشه حتى أذن الفجر بشروق ،
فقام إلى إلهو وجلس به وحيداً . فلم تطل وحدته ، فقد قام أبوه إلى صلاة
الفجر .. وانتظر محمد حتى ختم أبوه الصلاة فقال له :
- آبا .. أريد أحمد معى .

- أنت تسهر فى الخارج ، وأحمد سيكون وحده ولن تراقبه .

- أريد أحمد معى يا با ولن أسهر .. سأعيش له يا با .

- ما شئت يا بنى .. ما شئت .

وصحب الحاج والى ابنه وحفيده إلى القطار فركباه ، وحين عاد وحيداً
إلى طريق القرية لم يتصاعد الضباب أمام عينيه .. أحس كأن الضباب قد
ركب القطار مع ولده وحفيده .. لقد آن ل محمد أن يحمل العبء الذى
حملت .. وتدور الحياة .

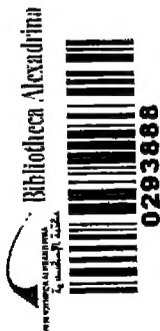
دار مصر للطباعة

سعيد جودة السجار وشركاه

رقم الإيداع : ٣٥٦٨ / ٢٠٠٠

التزقيم الدولي : 5 - 1344 - 11 - 977

مكتبة مصر
٣ شارع كامل مكتبي - النجيلة



دار مصر للطباعة
معيد جودة السحار وشركاه